حديث القرآن عن التفاؤل

" دراسة بلاغية "

إعداد الدكتورة

منى عبد الله علي فراج

أستاذ البلاغة والنقد المساعد

كلية الدراسات الإسلامية والعربية – بنات بني سويف

جامعة الأزهر – مصر

حديث القرآن عن التفاؤل دراسة بلاغية

منى عبد الله على فراج
قسم البلاغة والنقد ، كلية الدراسات الإسلامية والعربية بنات بنى سويف ، جامعة الأزهر ، جمهورية مصر العربية
البريد الالكترونى : Monafrage.7220@azhar.edu.eg

ملخص البحث:

القرآن الكريم بلغته الصافية الجميلة ، وتراكيبه الممتعة مورد لكثير من الدراسات، فالتركيب القرآنى ينطوى على أسرار كثيرةٍ ؛ فينبغى طرق كل باب يفضى إلى الإفصاح عن تلك الأسرار، ومن أسرار القرآن الكريم أنه الكتاب الأول الداعى للتفاؤل ، وهو أعظم مصدر للتفاؤل وانشراح الصدر وطمأنينته، وأن ما جاء في القرآن الكريم من آيات كثيرة عن قدرة الله على كل شيء، باعث على الطمأنينة والتفاؤل ، وما جاء فى القرآن عما تقر به أعين الصابرين ، ويجدد لهم الأمل والتفاؤل ، ومن توكل علي الله كفاه ما أهمه ، وعن التوبة والاستغفار وأنهما يصنعان التفاؤل بحياة جديدة سعيدة مباركة . وقد تناول هذا البحثُ حديث القرآن الكريم عن التفاؤل من خلال استقراء بعضِ الآيات القرآنية الدالة علي التفاؤل ، واستقراءِ شروحها، وتحليلِ كلام العلماء فيها، ثم تطرق البحثُ إلى تحليلها تحليلا بلاغيا وبيان الأعجازالقرآنى بها .

وقد جاء البحث فى مقدمة وتشمل على أهمية البحث ،وسبب اختياره، ومنهجه وخطته

وتمهيد ويشتمل على مفهوم التفاؤل لغة واصطلاحا ،و المقصود بالتفاؤل فى القرآن الكريم ، ومشروعية التفاؤل وأهميته في حياة الناس . ومبحثين:الأول

بعنوان: حديث القرآن عن التفاؤل في سورة الطلاق دراسة بلاغية ،والمبحث الثانى بعنوان : حديث القرآن عن التفاؤل وعدم الياس من رحمته أو إجابة دعائه .. أو نصره دراسة بلاغية ،ثم خاتمة تتضمن أهم النتائج التى توصلت إليها ،وأخيرا فهرس المصادر والمراجع .

الكلمات المفتاحية : آيات ، التفاؤل ، دراسة ، بلاغية .

The Qur’an’s hadith about optimism is a rhetorical study

Mona Abdullah Ali Farraj.
Department of Rhetoric and Criticism , College of Islamic and Arab Studies, Beni Suef Girls , Al-Azhar University , Egypt.
E-mail : dr-monaaabdalla@yahoo.com

Abstract:

The Holy Qur’an, with its pure, beautiful language, and its interesting compositions, is a resource for many studies. The Qur’an’s structure contains many secrets, so we must knock on every door that leads to revealing those secrets. One of the secrets of the Holy Qur’an is that it is the first book that calls for optimism.

It is the greatest source of optimism, cheerfulness, and reassurance, and the many verses mentioned in the Noble Qur’an about God’s power over everything give me reassurance and optimism, and what is mentioned in the Qur’an is about what comforts the eyes of the patient and renews their hope and optimism. And whoever trusts in God, He is sufficient for him. The most important thing is about repentance and seeking forgiveness, and that they create optimism for a happy and blessed new life

This research dealt with the hadith of the Holy Qur’an about optimism by extrapolating some of the Qur’anic verses that indicate optimism, extrapolating their explanations, and analyzing the words of scholars about them. Then the research touched upon their rhetorical analysis and explaining the Qur’anic miracles in them.

The research came in an introduction that includes the importance of the research, the reason for its selection, its methodology and its plan.

An introduction, which includes the concept of optimism in language and terminology, what is meant by optimism in the Holy Qur'an, and the legitimacy of optimism and its importance in people's lives. Two sections: the first entitled: The Qur'an's hadith about optimism in Surat Al-Talaq, a rhetorical study, and the second topic entitled: The Qur'an's hadith about optimism in various verses from the Qur'an's surahs. Al-Karim is a rhetorical study, followed by a conclusion that includes the most important findings reached, and finally an index of sources and references.

Keywords : verses , optimism , study , rhetoric.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على النبي الأمين، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وصحابته أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعدُ...

مما لا شك فيه أنَّ كتاب الله تعالي كتاب حياة وسلوك، مع ما تضمنه من توجيه عقدى وتشريعى، يقود المتبع لأوامره ونواهيه إلى حياة كريمة مباركة، فيها رضا الله عز وجل،والتسليم لقضائه ، ورجاء مغفرته ورضوانه وجميل عطاءاته ، ونحن جميعا بحاجة للأمل الدافع إلى المسير فى الحياة المتقلبة بكدرها ومنغصاتها ، لتهذيب الفرد بالسعادة والرضا فى جماعته من جانب الظاهروالباطن، وليكون بعدها منطلقاً فى حياته بروح الأمل وحسن الظن بربه ، بعيداً عن الكسل والنظرة التشاؤمية التى تعيق تقدمه ، وقد تحجزه عن التطور في حياته.

إن إحياء الأمل فى النفوس اليائسة ، والعمل على تغيير ما بها من إحباط إلى تفاؤل وأمل وحسن ظن بالله تعالى ،وما يترتب عليه من إدخال السرور على تلكم النفس التى كانت مثقلة بالهموم والأحزان ،وما يتبع ذلك من تحولها بإذن الله إلى التفكير الصحيح والعمل الجاد ، إن هذا كله لمن الأعمال الصالحة التي يحبها الله ،بل هو من أحب الأعمال إلى الله كما جاء فى الحديث الشريف عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ أنه قال:" أحب الناس إلى الله تعالى أنفعهم للناس، وأحب الأعمال إلى الله تعالى سرور تدخله على مسلم"(١)

فكتاب الله تعالى هو كتاب التفاؤل والأمل والدافع الأكبر للعمل ، وهو أعظم ما يستمد منه التفاؤل والأمل، فالمتدبر لآيات الله تعالى يرى الكثير من الآيات الدالة

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط حديث رقم ٦٠٢٦وصححه الألباني في الترغيب ج٢ ص ٧٠٩ باختلاف يسير.

على قيمة التفاؤل، والداعية إلى حسن الظن بالله، وكريم الرجاء به لعواقب الأمور،كما يجد تقريبا فى كل سورة الدعوات إلى العيش فى التفاؤل والرجاء والأمل، وهى كلها عوامل تحثُّ الناس جميعاً إلى العمل الجاد المثمر، ونبذ اليأس و التشاؤم والتقاعس، وأن ينظروا إلى الحياة نظرة رائعة،فيها الجد والمثابرة ؛ للانخراط فى كل ميدان كريم، يسعون فيه إلى بلوغ رضا الرحمن، وينشدون منه تحقيق المصلحة للناس كافة.

ولما للتفاؤل من أهمية فى حياتنا ؛ ولأنَّ كاتب الله تعالى هو أعظم ما يستمد منه التفاؤل والأمل الصالح ، أحببت أن أقدم دراسة موجزة حول هذا السلوك المبارك الراقى الذى تميز به ديننا ،فجاء هذا البحث الذى يحمل عنوان " حديث القرآن عن التفاؤل دراسة بلاغية ".

واخترت هذا الموضوع لأهميته فى حياتنا، ولحاجة كل إنسان إلى التعلق بجانب الأمل والنظرة المشرقة وعدم اليأس، مع أهمية ترك الإحباط والركون إلى الأسى والتعلق بآلام الماضي، وهذا كله يحمله وصف التفاؤل .

ولقد راعيت فى بحثى الأمور الآتية :

١- عزوت الآيات القرآنية الوارد ذكرها فى البحث إلى السور التى وردت فيها، مع ذكر اسم السورة ورقم الآية، كما قمت بتخريج جميع الأحاديث النبوية الواردة .

٢- حرصت على جمع المعلومات من مصادرها ومراجعها الأصيلة مباشرة، ورجعت إلى أكثر من مصدر فى المسألة الواحدة ما استطعت إلى ذلك سبيلاً.

٣- التزمت الأمانة العلمية، فنسبت كل قول إلى قائله، وإن كان بتصرف أشرت إلى ذلك

٤- اعتنيت بقواعد اللغة العربية والإملاء، وعلامات الترقيم، ومنها علامات التنصيص بحسب المنهج الأكاديمى المتبع.

وقد جاء هذا البحث فى مقدمة وتمهيد ومبحثين وخاتمة ،وثبت بأهم المصادر والمراجع .

أما المقدمة : ففيها بيان بأهمية الموضوع وسبب اختياره .

أما التمهيد فيشتمل على:

أولا: معنى التفاؤل لغة واصطلاحا.

ثانيا : المقصود بالتفاؤل فى القرآن الكريم .

ثالثا: مشروعية التفاؤل وأهميته فى حياة الناس.

المبحث الأول: بعنوان "حديث القرآن عن التفاؤل فى سورة الطلاق دراسة بلاغية

المبحث الثانى: بعنوان "حديث القرآن عن التفاؤل وعدم اليأس من رحمته أو إجابة دعائه ... أو نصره دراسة بلاغية "

تلى ذلك خاتمة البحث وضمنتها أبرز النتائج التى توصلت إليها .

وختمت البحث بثبت المصادر والمراجع

والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم ،وأن يكون لى ذخرا فى صحيفتى يوم الدين

وما توفيقى إلا با لله عليه توكلت وإليه أنيب .

التمهيد

عند دراسة أى موضوع أو الكتابة فيه فإنه لابد من ذكر فكرة مبدئية للقارئ تعينه علي الاستمرار في القراءة والاطلاع على تفاصيل الموضوع وقد يسمى التعريف بالتمهيد.

ولما اخترت موضوع (حديث القرآن عن التفاؤل دراسة بلاغية) كان لابد من الوقوف عند تعريف التفاؤل لغة واصطلاحا، والمقصود بالتفاؤل فى القرآن الكريم ،ثم أهميته بالنسبة إلى الناس.

أولا : معنى التفاؤل لغة واصطلاحا

التفاؤل لغة: هو مصدر تفاءل،والتفاؤل من الفأل،وهو قول أو فعل يستبشر به، وتسهل الهمزة فيقال الفال ، وتفاءل بالشيء: تيمن به ،وفى لسان العرب (وأصل الفأل الكلمة الحسنة يسمعها عليل فيتأول منها ما يدل على برئه؛ كأن سمع مناديًا نادى رجلاً اسمه سالم، وهو عليل، فأوهمه سلامته من علته، وكذلك المضل يسمع رجلاً يقول: يا واجد. فيجد ضالته.)[١]

وجاء تعريف التفاؤل فى معجم اللغة العربية المعاصرة أنه: (استعداد نفسي يهييء لرؤية جانب الخير فى الأشياء والاطمئنان إلى الحياة، فهو يساعد على تحمل مصاعب الحياة)[٢]

التفاؤل اصطلاحا:

أما التفاؤل فى الاصطلاح،فلم يذكرأهل اللغة تعريفا منضبطا للتفاؤل ، ويمكن استقاء معناه من التعريف اللغوى ومن خلال بيان آثاره، ومما جاء فى معناه أنه: (انشراح قلب الإنسان وإحسانه الظن وتوقع الخير بما يسمعه من الكلام الصالح)[٣]

---

(١) ينظر لسان العرب لابن منظور مادة فأل دار المعارف .

(٢) ينظر: معجم اللغة العربية المعاصرة د/ أحمد مختار عبد اغلحميد عمر ج٣ ص ٦٦٠ علم الكتب بيروت ط١ سنة ٢٠٠٨م.

(٣) ينظر:موسوعة نضر النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ج٣ص ١٠٤٦ بيروت :دار الوسيلة للنشر والتوزيع ط٣ ٢٠٠٤م .

ومن ذلك ماقاله ابن الأثير: (ومعني التفاؤل مثل أن يكون رجل مريض ، فيتفاءل بما يسمع من كلام فيسمع آخر يقول:يا سالم،أو يكون طالب ضالة ،فيسمع آخر يقول:يا واجد،فيقع فى ظنه أنه يبرأ من مرضه،ويجد ضالته)[١]

وعرفه القرافي بقوله:(وأما الفأل :فهو ما يظن عنده الخير،عكس الطيرة والتطير، غير أنه تارة يتعين للخير ،وتارة للشر وتارة مترددا بينهما ،فالمتعين للخير مثل الكلمة الحسنة يسمعها الرجل من غير قصد ، نحو يا فلاح يا مسعود ، ومنه تسمية الولد والغلام بالاسم الحسن حتى متى سٌمع استَبْشر القلب)[٢].

وقد أوضح النبى صلى الله عليه وسلم المعني له بكل وضوح من حديث أبى هريرة، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (لا طيرة ، وخيرها الفأل) قالوا: وما الفأل؟ قال: "الكلمة الصالحة يسمعها أحدكم" [٣].

ونظرا إلى تعلق التفاؤل بالحالة النفسية لكل إنسان فقد تعددت تعريفات علماء النفس تحديدا لمفهوم التفاؤل حسب نظرة كل باحث حول هذا الموضوع ،ومن ذلك (أنه نظرة استبشار نحو المستقبل تجعل الفرد يتوقع الأفضل ،وينتظر حدوث الخير ،ويرنو إلى النجاح،و يستبعد من خلا ذلك)[٤] .

كما جاء أيضا فى تعريف التفاؤل أنه (صفة تجعل توقعات الفرد وتوجهاته اجابية نحو الحياة بصفة عامة ، يستبشر الخير فيها ،ويستمتع بالحاضر،ويحدوه الأمل فى مستقبل أكثر إشراقا وأحسن حالا) [٥] .

---

(١) ينظر : النهاية في غريب الخديث والأثر لابن الأثير ج ٣ ص ٤٠٦ مادة فأل د.ط. بيروت :المكتبة العلمية سنة ١٩٧٩م.

(٢) ينظر الفروق المسمي بأنوار البروق في أنواء الفروق ل أحمد بن إدريس الصنهاجي القرافي ج ٤ ص ٢٤٠ طبعة .
وزارة الأوقاف السعودية عام ٢٠١٠م / ١٤٣١ه .

(٣) رواه البخاري باب الطيرة حديث رقم ٥٧٥٤.

(٤) ينظر التفاؤل والتشاؤم ،المفهوم والقياس والمتعلقات د محمد بدر الأنصاري ص ١٤،١٥ مجلس النشر العلمي جامعة الكويت ،لجنة التأليف والتعريب والنشر ١٩٩٨م

(٥) ينظر التفاؤل في زمن الكروب د عبدالله العسكر ص ١٢ دار رسالة البيان للنشر السعودية ط ١ سنة ١٤٣٩ه /٢٠١٨م.

وعليه :فالتفاؤل من بعد هذا هو انشراح قلب الإنسان وإحسانه الظن ،وتوقع الخير بما يسمعه من الكلم أو الحسن أو الطّيّب .

ثانيا : المقصود بالتفاؤل فى القرآن الكريم

المقصود بالتفاؤل فى القرآن الكريم هو: ما يقع فى قلب القارئ أو السامع للقرآن الكريم من رجاء وتوقع خير،أو زوال محذور بحسب حاله التى يكون فيها، أو الأمر الذى يبحث له عن حل فى كتاب الله عز وجل فى جميع أموره وشأنه.

لقد عرَفَ الرسول ﷺ الفأل كما في صحيح البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال النبى ﷺ : "لا طيرة وخيرها الفأل" قال: وما الفأل يا رسول الله ؟قال: "الكلمة الصالحة يسمعها أحدكم"(١)، فكيف بالكلمة الصالحة إذا كان قائلها رب العزة؟ فإذا سمع العبد قوله تعالى :" لا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا"، وقوله تعالى" فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا"..، وغيرها من الآيات القرآنية التى تدعو للتفاؤل ، ألا يملأ ذلك قلب المسلم تفاؤلا وسرورا ورجاء الفرج والرحمة ، فمثلا آيات التوبة تجعل المسلم مستبشرا بها، دافعة له إلى التوبة ،وآيات اللطف تفتح له أبواب توقع الفرج وزوال الكرب،وآيات الرزق تبشره برزق الله وأنه تعالى الواسع الباسط ، وآيات الدعاء تفتح له أبواب الأمل فى رحمة الله ،وهكذا فإن القرآن الكريم يفتح باب الأمل والتفاؤل لكل من تأمل وتدبر آياته المباركة.

ثالثا: مشروعية التفاؤل وأهميته فى حياة الناس

إن الناظر فى كتاب الله عز وجل لن يجد ما يدل على مصطلح التفاؤل صراحة بلفظه، ولكن المتدبر للآيات الكريمة يرى بين ثنايا الكلام المبارك الدعوات

(١) أخرجه البخاري باب الفأل حديث رقم ٥٧٧٥.

الواردة بلفظ غير صريح لكنها دالة على قيمة التفاؤل، والداعية إلي حسن الظن بالله، وكريم الرجاء به لعواقب الأمور.

ولما كان التفاؤل صفة إيجابية وخلقاً كريماً، وإنما تطيب الحياة بالأمل والتفاؤل، جاءت النصوص الشرعية ؛ لتعزز هذه الصفة فى النفس وتؤكد عليها؛ لذا نرى فى سنة نبينا ﷺ ما يتعلق بالتفاؤل صراحة ،وحرصه على تعليم المسلمين من حوله التفاؤل والإشراقة فى الحياة ، والحذر من التشاؤم والتطير ، ومن ذلك ما رواه أنس رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: (لا عدوى ولا طيرة، ويعجبني الفأل الصالح: الكلمة الحسنة)[١]، جاء فى شرح النووى (وإنما أحب الفأل ؛ لأن الإنسان إذا أمل فائدة الله تعالى وفضله عند سبب قوى أو ضعيف فهو على خير في الحال، وإن غلط فى جهة الرجاء فالرجاء له خير، وأما إذا قطع رجاءه وأمله من الله تعالى، فإن ذلك شر له، والطيرة فيها سوء الظن وتوقع البلاء،ومن أمثال التفاؤل أن يكون له مريض فيتفاءل بما يسمعه، فيسمع من يقول: يا سالم، أو يكون طالب حاجة فيسمع من يقول: يا واجد فيقع فى قلبه رجاء البرء أو الوجدان والله أعلم) [٢].

وعن أبى هريرة ﷺ قال :"كان النبى ﷺ يعجبه الفأل الحسن ،ويكره الطيرة"[٣]قال ابن بطال: "كان النبى صلى الله عليه وسلم يستحب الاسم الحسن والفأل الصالح ، وقد جعل الله فى فطرة الناس محبة الكلمة الطيبة والفأل الصالح والأنس به، كما جعل فيهم الارتياح للبشرى والمنظر الأنيق"[٤]

(١) ينظر صحيح البخاري حديث رقم ٥٧٥٦،و صحيح مسلم كتاب السلام باب الطيرة والفأل حديث رقم ٥٩٣٣.
(٢) ينظر: صحيح مسلم بشرح النووي ج ١٤ص ٢١٩. المطبعة المصرية بالأزهر ط١ سنة ١٩٣٠م .
(٣) ينظر سنن ابن ماجة تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي حديث رقم ٣٥٣٦. دار الفكر بيروت .
(٤) ينظر شرح صحيح البخاري لابن بطال القرطبي ت ياسر بن إبراهيم الصبيحي ج ٩ ص ٤٣٧ مكتبة الرشد الرياض د.ت .

وعن عبد الله بن بريدة عن أبيه ﷺ أن النبى ﷺ كان لا يتطير من شئ، وكان إذا بعث عاملا سأل عن اسمه فإذا أعجبه اسمه فرح به ورؤى بشر ذلك فى وجهه، وإن كره اسمه رؤى كراهية ذلك فى وجهه، وإذا دخل قرية سأل عن اسمها فإن أعجبه اسمها فرح بها ورؤى بشر ذلك في وجهه، وإن كره اسمها رؤى كراهية ذلك فى وجهه[1]؛ لذا ينبغى للإنسان أن يختار لولدِه وخَدَمِه الأسماء الحسنة، فإن الأسماء المكروهة قد تُوافق القَدَر ؛ فالاسم الحسن محبوب فى طباع الناس، والاسم المكروه مبغوض فى طباع الناس .

هذا ولقد اقتضت سنة الله في كونه أن استمرار الحياة قائم على العمل والجدّ والانطلاق، وهذا يعنى أن يكون الإنسان محباً للعمل، عنده الهمّة التى تبلغه القمّة، بعيداً عن اليأس والتشاؤم والتعلق بالماضى، والتفاؤل هو سنة العمل وسنة الفطرة التى تثمر الانطلاق نحو النجاح والاستثمار، وتحقيق المصالح التى تجعل الحياة جميلة راقية، وهو عنوان الثقة بالله، فلا تجد نفس المتفائل إلا فى انشراح واستبشار وسعادة.

والتفاؤل مما يعين على مصابرة الشدائد والخطوب، وتحقيق المقاصد والغايات وأعلى مراتب التفاؤل أن نتوّقعَ الشفاءِ عند المرض، والنجاحَ عند الفشل،والنصر عند الهزيمة، وأن تتوّقع تفريج الكروب ،ودفع المصائب والنوازل عند وقوعها، وليعلمْ يقينًا بأن الله سبحانه ما ابتلاه إلا ليرقيَه فى مدارج الكمال مصداقًا لقوله تعالى: { وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ }(البقرة ٢١٦)، فالتفاؤل فى هذه المواقف يولّد مشاعر الرضا والتحمّل والثقة، ويبعد مشاعر اليأس والانهزامية والعجز.

(١) ينظر سنن أبي داود تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد حديث ٣٩٢٠، دار الفكر بيروت و مسند الإمام أحمد ت شعيب الأرنؤوط حديث ٢٢٩٤٦.مؤسسة الرسالة نالرياض ط١ سنة ٢٠٠١م.

أساس التفاؤل أن تثق بالله وترضى بقضائه، وأن تعلم أنه لن يصيبك إلا ما كتب الله لك؛ فلا تستبطئ الرزق، ولا تستعجل النجاة، ولا تقلق على حال الأمة.

ومن خلال الآتى تظهر أهمية قيمة التفاؤل فى دنيا الناس:

أولاً: للتفاؤل أثر عجيب فى أداء العبادة، فالتفاؤل برحمة الله يدفع العبد لأداء العبادة على الوجه الأكمل ؛لأنه يرجو الخير من ربه،قال تعالى "أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ"(الزمر ٩)، فالمؤمن مطيع لربه، خاشع وخاضع له، يصلى لله فى ساعات الليل، وخشوعه مستمر حال سجوده وحال قيامه، يخاف الآخرة،ويرجو رحمة ربه، فيجمع بين الخوف والرجاء، وتلك هى العبادة الكاملة، التى يفوز بها صاحبها؟، وإذا كان بهذا الشعور الإيمانى" وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ" فإنه سينشط فى العبادة، ويؤديها بخشوع وخضوع؛ لأنه مرتاح النفس مطمئن القلب.

ثانيا : التفاؤل علامة الثقة بالله تعالى، فالمسلم المتفائل يؤمن بأن الله ميسر له الخير لا محالة، وقد أمر عباده بحسن الظن به وعدم اليأس فقال تعالى:{ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ } (يوسف ٨٧)، وفى الحديث القدسى عن أبى هريرة ﷺ قال: قال النبى ﷺ : (يقول الله تعالى :أنا عند ظن عبدى بى، وأنا معه إذا ذكرنى) [١]، وكلٌّ ذلك مراعاة لحسن الظن والتفاؤل لمستقبل واعد .

ثالثاً: ومما يدل على أهمية التفاؤل في حياة المسلم أنه يولد لدى المتفائل نشاط مثمر وقوة وشجاعة، فتراه غير آبه بالصعاب والعقبات، وهذه الطاقة هى ثمرة الثقة بالله رب العالمين، ومن كان متفائلاً بنصر الله وتأييده فلن تجزعه قوة بشر.

(١) صحيح البخاري حديث رقم ٧٤٠٥ و صحيح مسلم ح ٦٩٨١.

رابعاً: مما يدل على أهمية التفاؤل فى حياة الفرد أنه يجلب السعادة للقلب،والهناء للنفس، فالمسلم حين يكون متفائلاً بعواقب الأمور، مؤملاً بحسن العواقب وانقشاع الغمة فإن ذلك يبعث فى النفس راحة، وفى القلب انشراحاً وطمأنينة، قال ابن بطال:(جعل الله فى فِطَر الناس محبة الكلمة الطيبة والأنس بها، كما جعل فيهم الارتياح بالمنظرالأنيق والماء الصافى، وإن كان لا يَملِكه ولا يشربه)[١]

خامساً: ومما يدل على أهمية التفاؤل أن له تأثيراً بالغاً فى صحة الإنسان، فالنفس المتفائلة فى راحة وصحة فى البدن ؛ لذا ترى المريض حين يسمع عن تحسن فى صحته، وأن نتائج التحاليل تبشر بالخير فإنه يصحو بدنه، وتقوى مناعته؛ لذا كان من هدى الإسلام عند عيادة المريض ألا يسمع إلا ما يبشر بخير،وكان نبينا ﷺ حين يزور المريض يقول:"لا بأس طهور"[٢] وكم من مريض علته فى طريقة تفكيره واستدعائه لأحزانه وهمومه ،وتخوفه من الماضي.

وهنا ملحظ ينبغى الانتباه إليه، وهو أن التفاؤل الذى دعت إليه الشريعة وأقرته، هو ما يبعث على الهمّة وينشر العزيمة، ويولد الحماسة فى النفس لمزيد من العمل والعطاء، وليس معناه التواكل وترك الأسباب بحجة إحسان الظن بالله تعالى، فهذا لون، وما نتحدث عنه لون آخر، وهو الذى يتناغم مع مبادئ الشريعة وقيمها النبيلة.

ولهذا قال الحليمي :(وإنما كان ﷺ يعجبه الفأل؛لأن التشاؤم سوءُ ظنٍ بالله تعالى بغير سببٍ مُحقق، والتفاؤل حُسن ظن به، والمؤمن مأمور بحسن الظن بالله تعالي علي كل حال)[٣]

---

(١) ينظر : فتح الباري لابن حجر العسقلاني ج ١٠ ص٢٢٥ تحقيق عبد القادر شيبة طبعة الرياض ط١ سنة ١٤٢١ه/٢٠٠١م

(٢) صحيح البخاري حديث رقم ٣٦١٦.

(٣) ينظر فتح الباري ج ١٠ ص ٢٢٦.

المبحث الأول

حديث القرآن عن التفاؤل فى سورة الطلاق دراسة بلاغية

التعريف بسورة الطلاق

سميت بسورة الطلاق ؛ لأنها تضمنت الأحكام المتعلقة بالطلاق، وما يترتب على الطلاق من العدة والنفقة والسكنى .

أما عن وصف سورة الطلاق فقد وردت بعض الروايات عن ابن مسعود رضى الله عنه تصف لنا هذه السورة الكريمة بأنه قصرى لما تضمنته على بعض أحكام الطلاق باختصار وأن سورة النساء فصلت موضوع الطلاق ولذلك وصفت بالطولى،وعلى ما قاله ابن مسعود والرد عليه أشار بعض المفسرين إلى هذا الوصف بما يلى (وتسمي سورة –النساء القصرى– كذا سماها ابن مسعود كما أخرجه البخارى وغيره، وأنكره الدوادى ،فقال:لا أرى القصرى محفوظا،ولا يقال لشئ من سور القرآن قصرى ولا صغرى،وتعقبه ابن حجر بأنه رد للأخبار الثابتة بلا مستند،والقصر والطول أمر نسبى،وقد أخرج البخارى عن زيد بن ثابت أنه قال: طولى الطوليين ، وأراد بذلك سورة الأعراف).[1]

أما عن كون السورة الكريمة هل هى مكية أو مدنية فقد حكم جميع المفسرين بمدنيتها، وحول هذا وغيره ورد فى التفسير الوسيط عدد آياتها فضلا عن ترتيبها فى النزول والمصحف العثمانى ما يلى :(سورة "الطلاق"من السور المدنية الخالصة،وقد سماها عبدالله بن مسعود بسورة النساء القصرى،أما سورة النساء الكبري فهى التي بعد سورة آل عمران ،وكان نزولها بعد سورة"الإنسان" وقبل سورة"البينة" ،وترتيبها بالنسبة للنزول : السادسة والتسعون، أما ترتيبها بالنسبة

(١) ينظر:روح المعاني للآلوسي ج ٢٨ ص ١٢٨ ط دار الكتب العلمية ،الطبعة الأولي ١٤١٥هـ و التفسير الوسيط للدكتور سيد طنطاوي ج١٤ ص ٥٦٥. ط دار نهضة مصر – القاهرة.

لترتيب المصحف،فهى السورة الخامسة والستون ،وعدد آياتها إحدى عشرة آية فى المصحف البصرى،وفيما عداه اثنتا عشرة آية) .[١]

على الرغم من أن اسم السورة "الطلاق" يوحى بأنها سورة تشريعية جاءت لتحديد المبادئ العامة للحياة الزوجية فى حالة أن تكون قائمة وكذلك الآداب التى يجب أن يتبعها الزوجين فى الخلاف وأخيرًا تشريع الطلاق فى حالة استحالة العشرة، إلا أن هناك جانبا آخر فى هذه السورة قد يكون خفيا أو غير واضح للكثير من عوام الناس، ألا وهو أن هذه السورة تدعو للتفاؤل والتثبيت ورسالة لكل حزين ومهموم،فهى تحمل الكثير من آيات التفاؤل والتحفيز على التثبيت ؛ لما فيها من رسائل ربانية تدعوإلى التفاؤل منها قوله تعالى :

١-" لا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا"، وهى جزء من الآية الأولى فى السورة قال تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا }[٢] .

فى هذه الآية يخاطب الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم خطاب تشريف، ويبين له ولأمته حكما مهما من الأحكام المتعلقة بالأسرة فى الإسلام وهو الطلاق، فإذا أراد المسلم أن يطلق زوجته واستحالت العشرة بينهما فلا بد أن يكون الطلاق فى طهر لم يجامعها فيه ، ثم عليه أن يحصى وقت العدة ،وأن يتقى الله في زوجته ولا يظلمها،وقد استهلت السورة بالنداء على النبى ﷺوالأمة تابعة له تكريما وتشريفا وتفخيما وتعظيما ، ذكر هذا المفسرون ومن بينهم الزمخشرى ؛ حيث قال:

(١) ينظر : التفسير الوسيط ج ١٤ ص ٥٦٥.
(٢) سورة النساء : آية ١ .

(خص النبي ﷺ بالنداء وعم بالخطاب ،لأن النبى إمام أمته وقدوتهم ،كما يقال لرئيس القوم وكبيرهم :يا فلان افعلوا كيت وكيت إظهارا لتقدمه واعتبارا لترؤسه ، وأنه مدرة قومه ولسانهم ،والذي يصدرون عن رأيه ولا يستبدون بأمر دونه ،فكان هو وحده في حكم كلهم ،وسادا مسد جميعهم)،[1]هذا وقد ورد في النداء التي استفتحت به السورة الكريمة أقوال أخرى فوق ما تقدم أوجزها وأشار إليها صاحب تفسير الفتوحات الإلهية (في هذا الخطاب أوجه ؛**أحدهما** :أنه خطاب لرسول الله ﷺ بلفظ الجمع تعظيما ....،**الثانى** كأنه خطاب له ولأمته والتقدير :يا أيها النبى وأمته إذا طلقتم ،فحذف المعطوف لدلالة ما بعده عليه ،والثالث : أنه خطاب لأمته فقط بعد نداءه عليه الصلاة والسلام،وهو تلوين الخطاب، خاطب أمته بعد أن خاطبه، الرابع: أنه على إضمار قول: يا أيها النبى قل لأمتك إذا طلقتم النساء)[2]، فقوله تعالي : { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ } حكم عام، هذا يُفهم منه أنه عندما يكون الخطاب للنبى ﷺ يكون المراد بذلك رسول الله – ﷺ – مع أمّته؛ لأنه متابَع فلما يُخاطَب معناه خاطب الأمة أى: يا أيها النبى أنت ومن معك إذا طلقتم النساء؛ لأن الحكم ليس خاصاً برسول الله ﷺ.

ثم أتى بعد النداء الكريم بقوله تعالى " إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ"ومعني "طلقتم " : أى شارفتم وقاربتم الطلاق وعزمتم عليه ، فقوله " إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ" معناه إذا باشرتم أو قاربتم التطليق، أو نويتم أن تطلّقوا ليكن التطليق وهنّ مستقبلات العدة ؛ لأنه لما يطلقها ستلتزم بعدة أشهر معينة ، إما بالحيض أو بانتهاء الحيض ،وقد أشار إلي هذا العلامة الآلوسي بقوله :(وأيا ما كان

(١) ينظر تفسير الكشاف للزمخشري تحقيق الشيخ عادل احمد عبد الموجود و الشيخ علي محمد معوض ج ٦ ص ١٣٨ مكتبة العبيكان الريلض ط١ سنة ١٩٩٨م.

(٢) ينظر : الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية لسليمان بن عمر العجيلي الشهير بالجمل ج ٤ ص ٣٥٤،ط دار إحياء الكتب العربية ، وروح المعاني لالآلوسي ج٢٧ ص ١٢٨.

فالمعني إذا أردتم تطليقهن على تنزيل المشارف للفعل منزلة الشارع فيه)[1]هذا والأمر في قوله " فَطَلِّقُوهُنَّ" الغرض منه الإرشاد والتوجيه ،وليس تكرار الطلاق هنا تحصيل حاصل وإنما هو من باب التخصيص بعد التعميم .

أما قوله " لِعِدَّتِهِنَّ":اللام هنا بمعني "في" ؛لأن المعني طلقوهن في زمن استئناف عدتهن ،وهو الطهر الذي لم يجامع فيه ، أي في الزمان الذي يصلح لعدتهن، و كأنها لام الزمن، كأن يقول الكاتب: "انتهيت من كتابة هذا الكتاب لثلاث خلون من رجب" أي لهذا الوقت. فطلقوهن لوقت عدتهن، للوقت الذي يمكن أن يعتدّدن فيه فهي فى الحيض لا تعتدّ، فلا يجوز أن تطلق وهى فى هذا الحيض ، فالإسلام يريد أن يبقى البيت مبنياً ،ليست مسألة فورية لعل النفوس تهدأ وسنجد في نهاية الآية (لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا).

(وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ) :أي اضبطوا العدد وكان العدد يضبط بالحصى إذا أراد أن يعد شيئاً يعده بالحصى ، والمخاطب بالإحصاء هنا الأزواج لا الزوجات ،وإنما خُوطب الأزواج بذلك دون النساء ؛ لأنهم هم الذين تلزمهم الحقوق والمؤن المرتبة عليها،ثم أتي بعدها بقوله(وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ) لم يقل واتقوا الله فقط. كان يمكن فى غير القرآن أن يقول: "أحصوا العدة واتقوا الله" لكن كلمة ربكم جاءت ها هنا ؛ لأن الربّ فيه معنى التربية وفيه معنى التوجيه وفيه معنى الرعاية فالمربى يرعى من يربّى. فإذن اعلموا أن هذا الحكم هو من رعاية هذا الربّ سبحانه وتعالى .

قال (اتقوا الله) ذكر لفظ الجلالة للتخويف من الله أي خافوا الله، ثم (ربكم) الذي يعلّمكم فجمع بين التخويف وبين هذه اللمسة الحانية لقلوب المؤمنين،وكأنه أراد أن يقول لهم إن هذا الحكم ليس قاسياً عليكم، ليس لإيذائكم، ولا للإضرار بكم. فخافوا من الله أن تخالفوه واعلموا أنه لخيركم من مربٍّ ،وقد أتي بالواو في (وأحصوا،

(١) ينظر روح المعاني للآلوسي ج ٢٨ ص ١٢٨

واتقوا) فوصل بينهما للتوسط بين الكمالين وحذفها في "لا تخرجوهن" لكمال الاتصال ، فالجملة بدل اشتمال من مضمون جملة (وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ) ، لأن مكثهن في بيوتهن في مدة العدة يحقق إحصاء العدة " ، وقال بيوتهن بإضافة البيوت إلي ضمير النساء إشارة إلى شدة التصاقها بالبيت، أي لا تخرجها هذا بيتها، (ولا يخرجن) هي أيضاً لا تغادر البيت وتبقى، وهذا نوع من التقريب: تبقى في البيت وهو في البيت وهي لا تخرج ، وقد يكون هذا سبباً في إعادة الألفة بينهما ،و قوله (لا تخرجوهن) نهي و (ولا يخرجن) هذا نفي أريد به النهي .

{ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ } (إلا) أداة استثناء أي أن الخروج معلّق على شرط (أن يأتين بفاحشة مبيّنة) الفاحشة هي كل ما فيه عِظَم في الإساءة، و(مبيّنة) أي: فاحشة واضحة صريحة يعلمها الناس، فلما أراد تفظيع الأمر علق خروجهن علي الإتيان بفاحشة واضحة ظاهرة ، والمعنى : لاتخرجوهن إلا أن يأتين بفاحشة ظاهرة واضحة فأخرجوهن ،أى: يباح لكم إخراجهن وليس لهن الامتناع من الخروج.

أما قوله { وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ } تلك اسم إشارة مبتدأ راجع إلي كل ما تقدم من أحكام وحدود الله خبر له، وهو تعقيب علي ما مضي من أحكام عدة المطلقة، فقد حكمت الآية الكريمة علي كل من يخالف أوامر الله ونواهيه بالظلم لنفسه ووضع نفسه في غير موضعها وبالذات ما نحن بصدده من الأمور التي تتعلق بالحياة الزوجية اهتماما بشأنها وتعظيما لقدرها ، وأتى باسم الإشارة للبعيد مع قرب العهد بالمشار إليه؛ للإيذان بعلو درجتها وبعد منزلتها .

وذكر لفظ"حدود الله" مرة أخري فأظهر في مقام الإضمار؛ لتهويل أمر التعدى، والإشعار بعلية الحكم.

وأخبر عن متعديها بأنه ظلم نفسه للتخويف ؛ تحذيرا من تعدي هذه الحدود ،فمن تعدي حدود الله ظلم نفسه في الدنيا بتعريضها لعواقب سيئة بسبب مخالفة أحكام الدين؛ لأن أحكامه صلاح للناس فمن فرط فيها فاتته المصالح المنطوية عليها، وظلم نفسه في الآخرة بتعريضها للعقاب المتوعد به،وجيء بمن الشرطية التي تفيد العموم،أي كل من تعدي حدود الله، فدخل في ذلك الذين يتعدون أحكام الطلاق وأحكام العدة في هذا العموم .

ثم ذيلت الآية الكريمة بهذا التذييل الرائع فقال" لَا تَدْرِي لَعَلّ اللّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا"وهو بمثابة نتيجة لمن يلتزم أحكام الله في طلاق المعتدة الرجعية فإن الله عز وجل قد يفتح باب رحمته ويبدل إعراض الزوج عن امرأته إلي الرغبة فيها؛ ولهذا ينبغي علي المسلم ألا يوصد الأبواب في وجه نفسه ولا يطلق ثلاثا،فالأمر الذي يحدثه الله وذكر في ختام الآية أن الله يقلب قلب الزوج من بغضه لزوجته إلي محبتها، ومن الرغبة عنها إلي الرغبة فيها ،ومن عزيمة الطلاق إلي الندم عليه، فيراجعها .

هذا فضلا عما يتضمنه هذا القول الكريم من صور بلاغية والتي منها أن هذه الجملة فصلت عما قبلها للتوسط بين الكمالين ؛ لأنها إما أن تكون بدل اشتمال من جملة"ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه"أوتفسير وتفصيل لما قبلها.

ومن الأساليب البلاغية أيضا الالتفات من الغيبة إلي المخاطب المتعدي المجاوز لحدود الله ، فالخطاب لغير معين يقصد به كل من يصلح للخطاب أشار إلى هذا المعنى العلامة الألوسى وغيره بقوله :(والخطاب في "لا تدرى" للمتعدى بطريق الالتفات لمزيد من الاهتمام بالزجر عن التعدى لا للنبي – صلى الله عليه وسلم – كما قيل ،فالمعني :من يتعدى حدود الله تعالي فقد عرض نفسه للضرر، فإنك لا تدري أيها المتعدي عاقبة الأمر "لعل الله" تعالي يحدث في قلبك "بعد ذلك"

الذي فعلت من التعدي "أمرا" يقتضى خلاف ما فعلته فيكون بدل بغضها محبة وبدل الإعراض عنها إقبالا إليها).[1]

وجاء لفظ"أمرا"، نكرة للتنويع ،أي أمرا نافعا لهما فهو موصوف بصفة محذوفة. وهكذا يخبرنا الله عز وجل أنه مهما تشتد بك الشدائد وتتناولك الخطوب فلا تيأس ولا تحزن فأنت لا تدري ماذا يحمل لك الغد من أخبار قد تغير من هذا الواقع المؤلم الذي تعيشه فأنت لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا فقط اصبر واحتسب.

٢- ومن الآيات التي وردت في السورة الكريمة وتدعو للتفاؤل قوله عز وجل: "وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكّلْ عَلَى اللّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنّ اللّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللّهُ لِكُلّ شَيْءٍ قَدْرًا ".

لقد أولي القرآن الكريم اهتمامه البالغ للحياة الزوجية بدء وانتهاء وخاصة نهاية الحياة الزوجية تحتاج تقوي الله ،ومراقبته أكثر من بدايتها ؛لأن البغضاء وكراهة الحياة الزوجية قد تحمل فى طياتها الظلم والجور فمن أجل هذا وغيره كان التشديد علي تقوي الله ومراقبته في عدة المطلقة الرجعية أكثر ما يكون الاحتياج إلى التقوى فى هذه اللحظات ؛ لأنها قد تكون الفرصة الأخيرة لتصفية الحساب مع النفس والغير فاحتيج إلى التقوى هنا ، ورتب عليها خيرا كثيرا فقال عز وجل " وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا" أى : من يتق الله فى طلاق البدعة ، فطلق للسنة ولم يضار المعتدة ، ولم يخرجها من مسكنها ،واحتاط فى الإشهاد وغيره من الأمور، يجعل الله له مخرجا أى: خروجا وخلاصا مما عسى يقع فى شأنه الأزواج من الغموم والوقوع فى المضايق ويفرج عنه ما يعتريه من الكرب .

(١) ينظر روح المعاني للآلوسي ج ٢٨ ص ١٢٨.

والآية الكريمة لها معنى خاص وهو ما ورد فى سياق الآيات المتعلقة بالطلاق ومعناها أن من يتق الله فى إيقاع الطلاق على وفق السنة جعل الله له مخرجا إلى الرجعة ،ومن ذلك مارواه أبو داود عن مجاهد قال: كنت عند ابن عباس فجاءه رجل فقال إنه طلق امرأته ثلاثا قال فسكت حتى ظننت أنه رادها إليه ثم قال: ينطلق أحدكم فيركب الحموقة ثم يقول يا ابن عباس يا ابن عباس، وإن الله قال ومن يتق الله يجعل له مخرجا وإنك لم تتق الله فلم أجد لك مخرجا، عصيت ربك، وبانت منك امرأتك وإن الله قال يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن في قبل عدتهن)(١).

ومعنى عام وهو : من اتقى الله – سبحانه وتعالى– حصل له من الأجر والخير والبركة ما جاء ذكره في القرآن والسنة، وفتح الله جل جلاله له أبواب التوفيق والإعانة، فالعبرة كما يقول الأصوليون بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فالزم أيها المسلم تقوى الله في كل ما تفعل أو تقول وانتظر الفرج من بعد الضيق فالله وحده هو الذى يرزقك من حيث لا تحتسب، وهذه بشرى لكل مسلم ومسلمة تدعوهم للتفاؤل فالله الكريم يرزق من حيث لا تحتسب، فهذه الآية هى أكبر آية فرجا،أى تحقيقا للفرج، فلو كان الإنسان فى غم أو هم أو كرب وينتظر الفرج فهذا هو باب الفرج .

نزلت هذه الآية في عوف بن مالك الأشجعي ورد في لباب النقول(وأخرج الحاكم عن جابر قال نزلت هذه الآية "ومن يتق الله."في رجل من أشجع كان فقيرا خفيف ذات اليد كثير العيال فأتي رسول الله صلي الله عليه وسلم فسأله فقال "اتق

(١) ينظر سنن أبي داود تحقيق شعيب الأرنؤوط – ومحمد كامل قرة حديث رقم ٢١٩٧ دار الرسالة العالمية ط١ سنة ٢٠٠٩م...

الله واصبر"، فلم يلبث إلا يسيرا حتي جاء ابن عم له بغنم وكان العدو أصابوه فأتي رسول الله ﷺ فأخبره خبرها فقال" كلها" فنزلت)[1]

وهذه الآيات وقعت اعتراضا بين جملة "وأقيموا الشهادة " وجملة" واللائي يئسن من المحيض" جيء به لتأكيد ما سبق من الأحكام، وترغيبا في الإعانة المترتبة علي التقوى ،فلما جاء قوله "ذالكم يوعظ به" عقبه الله تعالي بقضية عامة قوله " وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ " ،وهي أن لتقوي الله خير في الدنيا والآخرة، فالقرآن الكريم دائما ما يعقب الموعظة والترهيب بالبشارة والترغيب ، فالتوكل على الله هو غاية الاعتراف والتسليم بقدرته عز وجل على التصرف في كل شيء بما ينفعك ولا يضرك.

وجاءت الآية بأسلوب الشرط وله دلالته المعنوية التي انصرف إليها هذا النمط فتوزعت بين النصح والإرشاد والحكمة مع دلالة الحدث على الاستمرار، وأدة الشرط "من" أفادت العموم ، فكل من استمر علي تقوي الله جعل الله له دائما مخرجا وخلاصا من كل ضيق ،وهذا عهد من الله تعالى ينبغي أن نطمئن إليه؛ لأنه عندنا شرط (من يتق الله) وجواب شرط (يجعل له مخرجا) . التقوى وكن مطمئناً أن الله –عز وجل– سيجد لك مخرجاً ويرزقك من حيث لا تحتسب

(ولما كان أمر الطلاق غير خال من حرج وغم يعرض للزوجين وأمر المراجعة لا يخلو في بعض أحواله من تحمل أحدهما لبعض الكره من الأحوال التي سببت الطلاق ،أعلمهما الله بأنه وعد المتقين الواقفين عند حدوده بأن يجعل لهم مخرجا من الضائقات ، فشبه ما هم فيه من الحرج بالمكان المغلق علي الحال فيه وشبه ما يمنحهم الله به من اللطف وإجراء الأمور علي ما يلائم أحوالهم بجعل منفذ

(١) ينظر : أسباب النزول المسمي "الباب النقول في أسباب النزول " جلال الدين السيوطي ص ٢٦٨ ط مؤسسة الكتب الثقافية ط١ سنة ٢٠٠٢م./ ١٤٢٢هـ

في المكان المغلق يتخلص منه المتضائق فيه)[١]، ففي الكلام استعارة تمثيلية أكدت المعني ودلت علي أن أمر الأسرة من الأمور الخطيرة التي ينبغي علي المسلم أن يكون فيها متقيا لله ،مراقبا له خائفا منه متوكلا عليه محافظا علي حدود الله وأوامره ونواهيه ، والمخرج هنا أصالة ما يخرج به الإنسان من الطلاق إما بمراجعة الزوج أو التفريق الذي يكون من بعده أن الله تعالي يغني كلا من سعته ،ويقصد بالآية عموما أن كل من حقق تقوي الله سبحانه وتعالي في أمر من الأمور فإن الله يجعل له مخرجا، وشمل المخرج أيضا تخليصهم من أهوال الحساب والانتظار فالمخرج لهم في الآخرة هو الإسراع بهم إلي النعيم .

ولما كان من دواعي الفراق والخلاف بين الزوجين ما هو من التقتير في الإنفاق لضيق ذات اليد ،فكان الإحجام عن المراجعة عارضا كثيرا للناس بعد التطليق ،أتبع الوعد بجعل المخرج للمتقين بالوعد بمخرج خاص وهو مخرج التوسعة في الرزق، ولما كان أحلي الهبات ما جاء من مكان لا يُرجي قال " وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ" أي : من مكان لا يحتسب منه الرزق أي لا يظن أنه يرزق منه ، وهي معطوفة علي " يجعل له مخرجا" ، فهو في مقام جواب ثان للشرط الأول "من يتق الله" ،والتقدير :من يتق الله يرزقه من حيث لايحتسب ،وهو داخل ضمن العهد،فالله تعالى يتعهد جلّت قدرته، بأن كل من اتقى الله جعل له مخرجا ورزقه من حيث لا يحتسب ، والمقصود بالرزق من حيث لا يحتسب ما يأتي بلا أسباب ظاهرة، فسنن الله سبحانه جرت بترتيب المسببات على أسبابها، ولا ينخرم هذا بمجرد تقوى الإنسان، وإلا لما كان للكفار نصيب من رزق الله سبحانه، لكن للمتقي هنا ميزة؛ وهي الرزق الذي لا يكون له سبب ظاهر.

ويشهد لهذا ما فهمه أئمة التفسير من الآية، فقد جاء عن قتادة، وغيره في قوله

(١) ينظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ج ٢٨ ص ٣١١.ط الدار التونسية للطباعة والنشر د.ت

سبحانه:"ويرزقه من حيث لا يحتسب"(لا يأملُ ولا يَرْجو)[1](من حيث لا يَرْجو ولا يؤمّلُ)[2]، وقوله "من حيث " فيها استعارة تبعية حيث شبه الأحوال والوجوه التي تكون سببا في الرزق بالجهات ؛لأنها لما جعلت وجوه الرزق وأحواله مقرونة به أشبهت المكان الذي يرد منه الوارد ، والجملة إطناب بطريق الاحتراس يقول ابن عاشور (وهو احتراس لئلا يتوهم أحد أن طرق الرزق معطلة عليه فيستبعد ذلك فيمسك عن مراجعة المطلقة ؛لأنه لا يستقبل مالا ينفق منه ، فأعلمه الله أن هذا الرزق لطف من الله والله أعلم كيف يهيء له أسبابا غير مرتقبة)[3].

"ومن يتوكل على الله" شرط، وجوابه فهو حسبه :أي كافيه، ومن لم يتوكل علي الله فهو في ذلٍ وفاقةٍ أبدًا، واستخدام القرآن للفظ التوكل ولم يقل يعتمد ؛ لأن في التوكل حماية ورعاية وراحة نفسية وطمانينة قلبية

"بالغ أمره" المراد بالأمر هنا الحكم والقضاء،و"قد" حرف تحقيق، واستخدام حرف التحقيق مع الفعل الماضي يدلّ على يقين حصول ما بعدها، وهذا من أساليب التأكيد القرآنية.

"لكل شيءٍ قدرًا" (أي: تقديرا لا يتعداه في مقداره وزمانه وأحواله وإن اجتهد جميع الخلائق في أن يتعداه فمن توكل استفاد بالأجر وخف عنه الألم وقذف في قلبه السكينة ومن لم يتوكل لم ينفعه ذلك وزاد ألمه وطال غمه بشدة سعيه وخيبة أسبابه التي يعتقد أنها هي المنجية فمن رضي فله الرضا ومن سخط فعليه السخط)[4].

(١) ينظر: تفسير الطبري لابن جرير الطبري ت د/ عبدالله بن عبد المحسن التركي ج ٢٣ ص٤٦ دارهجر للطباعة والنشر ط١ سنة ٢٠٠١م.
(٢) ينظر المرجع السابق نفس الجزء والصفحة
(٣) ينظر : التحرير والتنوير ج ٢٨ ص ٣١٢.
(٤) ينظر الفتوحات الإلهية ج٤ ص ٣٥٨..

لفظ "كل" من صيغ العموم، والعموم هنا محفوظ ؛ أي: باق على عمومه، لايدخله التخصيص؛ إذ لا يتصور شيء في الوجود خارج عن تقدير الحق جل جلاله، وهذا مما يمنح المؤمن طمأنينة بأن مصرّف الأقدار هو الله سبحانه، فلا يحزن على ماضٍ، ولا يخاف على مستقبل، قال جل شأنه: "لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ "الحديد " ٢٣.

وهذه الآية" وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا" كمثيلاتها أيضًا جاءت أصالة في الطلاق والعدة ونحوها، ومعناها عام حسب القاعدة:العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

٣- ومن الآيات التي وردت في سورة الطلاق وتدعو إلى التفاؤل قوله تعالي"وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا"

وهي دعوة مفتوحة لأصحاب الذنوب والمعاصي مهما بلغت عنان السماء فباب التوبة مفتوح على مصرعيه فقط اتق الله وابتعد عن خطوات الشيطان يكفر عنك رب العزة جميع سيئاتك وليس هذا فقط ولكنه يعظم أجرك أي يؤتك الأجر الوفير العظيم على توبتك، والآية تكرير للموعظة والأمر بتقوي الله عز وجل ،وقد وعد الله عباده هنا بما هو أعظم من الأرزاق وتفريج الكرب وتيسير الصعوبات في الدنيا، وذلك بتكفير للسيئات وتوفير الأجور فقال " يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا"، وقد تكررت جملة "ومن يتق الله" في السورة الكريمة ؛لأمر عجيب ربما يخفي علي كثير ، وهو دليل واضح علي بلاغة هذا الكتاب العظيم ،وتكرار التقوى في هذه السورة على قصرها فيه مقاصد مهمة، منها : أن الطلاق مظنة الوقوع في الظلم وتجاوز حدود الله جل شأنه، فذكر التقوى باعثٌ للاستجابة، وحاجز بين الإنسان والظلم، ومنها : أن التقوى مانعة من نزول العقاب العام، والهلاك الجماعي للأمة كما ذكر في آخرالسورة، فيكون تكرار التقوى والأمر بها من باب إرشاد

الناس لما يقيهم من العذاب، وقد أحسن أبو حيان الأندلسي –رحمه الله – بقوله: (ولما كان الكلام في أمر المطلقات وأحكامهن من العدد وغيرها ،وكن لا يطلقهن أزواجهن إلا عن بغض لهن وكراهة ،جاء عقيب بعض الجمل الأمر بالتقوي من حيث المعني ،مبرزا في صورة شرط وجزاء في قوله "ومن يتق الله" ،إذ الزوج المطلق قد ينسب إلي مطلقته بعض ما يشينها به وينفر الخطاب عنها ،ويوهم أنه إنما فارقها لأمر ظهر له منها ،فلذلك تكرر قوله :" ومن يتق الله" في العمل بما أنزله من هذه الأحكام ،وحافظ علي الحقوق الواجبة عليه من ترك الضرار والنفقة علي المعتدات وغير ذلك مما يلزمه ، يرتب له تكفير السيئات وإعظام الأجر).[١]

وذكر العلامة الهرري في تفسيره أمرا آخر ،حيث قال:(قال في برهان القرآن: أمر بالتقوي في أحكام الطلاق ثلاث مرات وعد في كل مرة نوعا من الجزاء ،فقال أولا يجعل له مخرجا يخرجه مما دخل فيه،وهو يكرهه، ويهيئ له محبوبه من حيث لا يؤمل ،وقال في الثاني :يسهل عليه الصعب من أمره ،ويفتح له خيرا ممن طلقها، والثالث: وعد عليه الجزاء بأفضل الجزاء ،وهو ما يكون في الآخرة من النعماء، إشارة إلي تعدد النعم المترتبة علي التقوي).[٢]

٤– ثم تأتي خاتمة آيات التفاؤل في السورة الكريمة ،قاطعة حاسمة قوله تعالي:"سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا" هذه الآية رسالة إلى كل حزين ومكروب وهي إحدى البشارات التي تحملها السورة فالله يجعل بعد العسر والضيق اليسر والفرج، فهو الرحمن الرحيم بعباده اللطيف بهم الخبير بحالهم، كتب على نفسه الرحمة، فلا تحزن ولا تبتأس واجعل ثقتك في رب الأرباب عالية فلا عسر إلا ويأتي بعده

(١) ينظر تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي ت الشيخ عادل أحمد عبد الموجود و الشيخ علي محمد معوض ج ٨ ص ٢٨٠ دار الكتب العلمية بيروت – لبنان ط١ سنة ١٩٩٣م.

(٢) ينظر: تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن للعلامة الهرري الشافعي مراجعة د/ هاشم محمد مهدي ج ٢٩ ص ٤٢٢. دار طوق النجاة للطباعة والنشر ط١ سنة ٢٠٠١م /١٤٢١هـ

اليسر، قال العلامة الهرري في تفسير هذه الآية : (وفيه تطيب لقلب المعسر وترغيب له في بذل مجهوده ،ووعد لفقراء الأزواج لا لفقراء ذلك الوقت عموما ، كما جوزه الزمخشري ،حيث قال : وعد لفقراء ذلك الوقت بفتح أبواب الرزق عليهم ،أو لفقراء الأزواج إن أنفقوا ما قدروا عليه،ولم يقصروا).[١]

شرع الله الدين لعباده الموحدين؛ ليعبدوه ويوحدوه ولا يشركوا به شيئًا، وجعل دينه دينَ التوحيد دين يسرٍ وتوسعة لا دين عسر وتضييق على العباد ،فكما لم يكلفهم الله ما لاطاقة لهم به،أمرهم كذلك برفع الحرج عن بعضهم البعض فلا يضيّق أحدهم على أخيه المسلم ولا يكلفه ما لا يطيق، وعلى هذا الهدف وهذا الصراط المستقيم كان مدار ما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم من أحاديث شر يفة؛ قال رسول الله ﷺ موصيًا صحابيّيه الكريمَين عندما أرسل معاذًا والأشعري رضي الله عنهما إلى اليمن: "بشرا ولا تنفرا، ويسرا ولا تعسرا"[٢]

" سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا" تذييل لقوله "ومن قدر عليه رزقه"، جاء هذا التذييل والختام بالوعد الأكيد من الله عز وجل بتغيير الأحوال بعد الفقر غني وبعد العسر يسرا ووعد الله لن يتخلف أبدا، ودخول السين علي الفعل المضارع "يجعل" تدل علي التكرار و التأكيد (أي صدق الله وعده فيمن كانوا موجودين عند نزول الآية ففتح الله عليهم جزيرة العرب ثم فارس والروم حتي صاروا أغني الناس وصدق الآية دائم غير أنه في الصحابة أتم لأن إيمانهم أقوي من غيرهم) .[٣]

(سيجعل) هنا ذِكر حالة عسر كما في قوله تعالى: { وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آَتَاهُ اللَّهُ } ليس معه يسر الآن وإنما قُدِر عليه الرزق الآن وهو مُضيّق عليه واليسر سيكون فيما بعد (لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ

(١) ينظر حدائق الروح والريحان ج ٢٩ ص ٤٢٧.
(٢) رواه البخاري حديث رقم ٤٣٤١ .
(٣) ينظر: الفتوحات الالهية ج٤ ص٣٦١.

مِمَّا آَتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آَتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا "،فهذه حالة واقعة خاصة معيّنة والتوسعة ستكون فيما بعد. ولا يمكن أن تأتي محلها (إن مع العسر يسرا) فهذه حالة عامة هذه في سورة الشرح، وتلك حالة خاصة ومسألة معينة ولا يصح معها (إن مع العسر يسرا) لأن الرزق مقدّر ومُضيّق عليه الآن والآية وعد بأن ييسر الله تعالى له فيما بعد.

(ومن بلاغة القرآن الإتيان ب"عسر ويسر" نكرتين غير معرفين باللام ؛ لئلا يتوهم من التعريف معني الاستغراق كما في قوله "فإن مع العسر يسرا")[1]

وهكذا حُشدت سورة الطلاق بعدد من الجمل التي تفتح لكل مغموم ومهموم آفاق الأمل علي الرغم من قصرها ، فمن مر في حياته بزواج فاشل أو مرض أو صراع نفسي أو خسارة مالية ،فعليه أن يتدبر ما ورد من آيات التفاؤل والتثبيت في هذه السورة الكريمة .

(١) ينظر: التحرير والتنوير ج٢٨ص٣٣٣ .

المبحث الثاني

حديث القران الكريم عن التفاؤل وعدم اليأس من رحمته و نصره وإجابة دعائه دراسة بلاغية

* من الآيات الكريمة التي تدعو إلى التفاؤل وعدم اليأس من النصر قوله تعالي"إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكّلِ الْمُؤْمِنُونَ"(ال عمران ١٦٠) ، هذه الآية الكريمة تقرير لحقيقة التوكل على الله الذي ذكرقبلها في قوله تعالى"فَإِذَاعَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ"،(ال عمران ١٥٩) ، فالتوكل من الخصائص التي تميز بها المؤمنون؛ ولأنه سبق الحديث عن حب الله للمتوكلين، استأنف في هذه الآية بذكر ما يجعلهم يقبلون على ربهم؛ لأن النصر منه سبحانه،والإخبار بأن النصر من الله تعالى أمر ظاهر لكل موحد، فيحمل الكلام على أنه تسلية لرسول الله – ﷺ – وأصحابه ؛ لما أصابهم من الهزيمة، فلا يحزنوا، وعليهم أن يردوا كل الأمور إليه سبحانه؛ ليكن ذلك تسلية لهم؛ وليبحثوا عن الأسباب التي أدت إلى ذلك، فالخبر مستعمل في لازم معناه، وهو الحض على تحصيل الأسباب التي تؤدي إلى نصر الله لهم ،ويجوز أن يكون الإخبار مبنيا علي تنزيل العالم منزلة الجاهل ،حيث أظهروا من الحرص علي الغنيمة ومن التأول في أمر الرسول لهم في الثبات ،ومن التلهف علي ما أصابهم من الهزيمة ما جعل حالهم كحال من يجهل أن النصر والخذلان بيد الله تعالي ،فالخبر مستعمل في معناه علي خلاف مقتضي الظاهر.[١]

والآية وردت بعد ذكر غزوة أحد، وقد كشفت الآيات السابقة عن أسباب الهزيمة، وضمدت جراح الأمة، بعد ذلك جاءت هذه الآية لتضع تشريعاً عاماً،

(١) ينظر: التحرير والتنوير ١٥٢/٤– ١٥٣. بتصرف.

يصوغ أسباب الانتصار، ويبين أن النصر من الله تعالى، ولكن بعد أخذ بالأسباب، وبعد أن تتخلق الأمة بأخلاق النصر.(١)

والآية فيها ترغيب في طاعة الله تعالى، وذكر لما به يستحقون نصره تعالى وتأييده، وتحذير من المعصية، وما به يستوجبون الخذلان.(٢)

ولأن الآية تقرر قاعدة عامة في وجوب تفويض الأمور إلى الله بعد أخذ الأسباب، جاء الكلام ملتفتاً من الغيبة في قوله " لنت لهم"، "لانفضوا"، " فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم"، إلى الخطاب ؛ ليكون الكلام موجهاً للمخاطبين الذين يتلونه، فيتقرر في أذهانهم أن الأمر يخصهم فيعملوا به؛ ولئلا يفهم أنه خاص بغيرهم.

والتعبير بجملة الشرط " إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ" ؛ ليتم ربط تحقق الفعل بجوابه، والجواب بفعله، فلا نصر إلا من الله، ولا خذلان مع نصر الله، ولا نصر مع أمر الله تعالى بخذلانهم، وحينما ينتفي أحدهما فلا يمكن أن يتحقق الآخر، ومع أن المقام مقام عتاب من الله لمن فر يوم أحد من المؤمنين ،إلا أننا نري النظم القرآني يتلطف في الخطاب معهم إذا عاتب وأنذر ويؤكد إذا وعد وبشّرفيقول" إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ "،حيث نفي الهزيمة في حالة نصر الله لهم بنفي جنس المنتصر عليهم الغالب لهم "فلا غالب"، ونفي جنس الغالب يستلزم نفي الغلب في أية صورة كان. وإيثار أداة الشرط (إن) على إذا، ليكون المؤمنون بين الرجاء والخوف، فلا ينامو ا ثقة بالنصر، ولا ييئسوا

(١) ينظر التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن للدكتور عبد العظيم إبراهيم المطعني ١٩٢/١-١٩٣. بتصرف مكتبة وهبة ط ٣ ٢٠١١م.
(٢) ينظر الكشاف ج ١ ص ٤٢٤.

ثقة بالهزيمة، ولكن ليترَّقبوا النصر، ويأخذوا مع ذلك بالأسباب، ويخافوا الهزيمة ويجتنبوا أسبابها.(١)

ولقد عبر عند النصر بصريح لفظه (إن ينصركم الله)؛ لأنه غاية ما يتمناه المؤمنون عند لقاء العدو، ولما كانت الهزيمة هي التي تقابل النصر عدل عنها إلى لفظ (فلا غالب لكم)؛ لأن الخطاب للمؤمنين الذين يحبهم الله تعالى ويحبونه؛ ولأن كلمة الهزيمة ثقيلة على النفس، وفى الوزن، عدل إلى ما هــو أخف فى التعبير تنبيها على حبه تعالي للمؤمنين، وتلطفه بهم، فكلمة (غالب) قابلة لأن يقل سوءها إلى أقصى صــورة، ليكن من معانيها غلبة أحــد الفريقين بعــد رجــوح كفته على الآخر بعد التساوي.(٢)

وقوله (غالب) دون (تغلبوا) للتنصيص على التعميم في الجواب ؛ لأن ترتيب الجزاء على الشرط أغلبي، وقد يكون جزئياً، أي لا تغلبوا من بعض المغالبين، لذا عدل عن ذلك التعبير إلى ما في الآية ليفيد العموم دفعاً للتوهم.(٣)

وعطف جملة (وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الّذِي يَنْصرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ) على جملة (إن ينصركم الله) لاتفاق الجملتين في الإخبار، وإيثار التعبير بأداة الشرط في قوله تعالى (وإن يخذلكم) ؛ إشارة من الله بأن حدوث ذلك منه مستبعد لرحمته سبحانه بالمؤمنين.

والخذلان في اللغة: ترك الشيء والقعود عنه،والخذلان ترك المعونة، وتخاذلت رجلاه إذا لم تعيناه على المشي (٤)، وقد عبر عن الهزيمة بالخذلان، ولم يصرح بالهزيمة تلطيفاً ورحمة، فإن ترك المعونة لا يعني انهزام المخذول بالضرورة، وإن

(١) ينظر: التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم ج١ ص ١٩٣،١٩٤ بتصرف .
(٢) ينظر:تأملات في سورة ال عمران بقلم د/ حسن محمد باجودة ص ٤٧٢،٤٧٣ بتصرف د. ط . د.ت
(٣) ينظر:التحرير والتنوير ج٤ ص ١٥٣. بتصرف.
(٤) ينظر:. : معجم مقاييس اللغة ، احمد بن فارس ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ج٢ ص ١٦٥ مادة خذ ل ، دار الفكر للطباعة والنشر سنة ١٩٧٩٠م/ ١٢٩٩ه.

كان ترك المعونة من الله يعني الهزيمة، ولكن للطف بالمؤمنين لم يصرح بلفظ الهزيمة، والعدول عن المسبب وهي الهزيمة إلى السبب وهو الخذلان ألطف في حق المؤمنين؛ لأن الهزيمة كبيرة في حقهم، وهي دعوة لهم ليتداركوا الأسباب التي تؤدي إلى خذلان الله لهم.

ولما أشار إلى إمكان خذلانهم عند العصيان، عطف عليه بالفاء التى تقتضي الترتيب والتعقيب في قوله (فَمَنْ ذَا الّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ) إشارة إلى أن عدم وجود النصر تأتي مباشرة لحكم الله لهم بالخذلان، فلا فرصة عندهم لطلب النصر بعد أمر الله عليهم بالخذلان.

والاستفهام إنكاري يفيد نفي الناصر، ذاتاً وصفة، أي أنه لا ينصركم أحد غيره[١]. وإيثار الاستفهام في هذه الجملة دون التي سبقت في قوله (فلا غالب لكم)؛ لأن الأولى في جانب التأييد، والحكم من الله مباشرة أكثر طمأنة، وتقوية لجنان المؤمنين، بينما الاستفهام في الثانية تحفيز للذهن للنظر والتأمل في طلب النصرة من غير الله، وحينها يصل العقل والإدراك أنه لا ملجأ من الله إلا إليه سبحانه، وهذه رياضة للذهن وترويض للنفوس على التسليم لأمر الله والامتثال له؛ لتتحقق مصالحهم الكبرى، ويتم نصر الله لهم في مواطن المحنة.

وجاء الإثبات في جواب النفي في الأول صريحاً، وفي الثاني لم يصرح به تلطفاً بالمؤمنين، فلم يصرح بأنه لا ناصر للمؤمنين، وإن كان الكلام يفيد ذلك.

فالاستفهام يقتضي السؤال عن الناصر، ولم يجر ذلك مجرى الحديث عن الكفار، فقد صرح بأنه لا ناصر لهم في قوله تعالى:"أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ"(محمد: آية ١٣).

(١) ينظر:التحرير والتنوير ج ٤ ص ١٥٣ و إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم المسمى بتفسير أبى السعود ج٢ ص ١٠٦. دار إحياءالتراث العربى بيروت لبنان د. ت

والاستفهام فيه نكتة أخرى، إذ يشعر بأن أي نصر لأي فريق إنما يتم بإرادة الله، ولو قال: فلا ناصر لكم، لكان نافياً لوجود الناصر وهو في الأصل موجود، ولكن المراد أنه لا قيمة له ما لم يكتب الله النصر

والاستفهام ب "فَمَنْ ذَا الّذِي" يوحي- هنا- أن فاعل النصر بعد خذلان الله لا وجود له ، واكتسب العموم من قوله (ذا الذي) الذي يعم كل شيء، مهما عظمت مكانته، واشتدت قوته.

وتقييد الجملة بقوله (من بعده) العائد على الله تعالي،مستعمل في لازم معناه وهو المغايرة والمجاوزة، أي فمن ذا الذي ينصركم من دونه، وجعله بعضهم من التمثيلية المكنية، بأن مثلت الحالة الحاصلة من الانكسار بحالة من أسلم الذي استنصر به وخذله فتركه وانصرف عنه ، فحذف ما يدل علي الحالة المشبه بها ورمز إليه بلازمه وهو لفظ "من بعده".(١)

وجملة (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) تذييل، قصد منه الأمر بالتوكل على الله، والترغيب فيه ؛ ولذا جاء في عجز الآية حث المؤمنين عليه،أي توكلوا علي الله وحده ،لا علي نبي ولا علي قوة بعدد ولا بمال من غنيمة ولا غيرها بل وجعل ذلك أمارة صحة إيمانهم.

وتقديم الجار والمجرور في قوله (وعلى الله) لإفادة قصره عليه تعالى، فهو من قصر صفة التوكل من المؤمنين على الموصوف وهو الله ،والمراد بالمؤمنين الجنس، وتكون (أل) للاستغراق، والمخاطبون من باب أولى، ولذا أظهر اسم الجلالة (الله) وغير أسلوب الكلام من الخطاب في قوله (إن ينصركم، إن يخذلكم) إلى خطاب عموم المؤمنين، فلم يقل (وعليه فتوكلوا)، بل قال (وعلى الله فليتوكل المؤمنون).

(١) ينظر :التحرير والتنوير ج ٤ ص ١٥٤.

و(المؤمنون) من وضع الظاهر موضع المضمر، لأن الإيمان من مقتضيات تخصيصه تعالى بالتوكل، ولأن الإيمان يقتضي التصديق به سبحانه، ففيه تشريف لهم، وتذكير بأن الإيمان مما يحتم التوكل عليه سبحانه.

ولم يقل في الآية (المتوكلون) إشارة إلى أن هذا الشرط قد طرأ عليه نوع من الخلل، فعلى المؤمنين أن يعملوا على إصلاح هذا الخلل، وليتذكروا أن من واجبات إيمانهم هو التوكل الكامل على الله تعالى وبعده لا بأس من أخذ الأسباب.

وهكذا تختم الآية في لمسة عتاب حانية، وفي توجيه كريم للمؤمنين؛ لأنه سبحانه حتي وفي مقامات العتاب لا يزال الحق تبارك وتعالى يتلطف بهم، ويتلمس الزلل بشيء من الرفق بعباده المؤمنين ؛ ليكون ذلك أقوى تأثيراً في نفس المؤمن حينما يشعر بلطف الله معه فيتوب ويرجع.

والآية كذلك تقرر مبدأً يجب ألا يحيد عنه المؤمنون، ألا وهو عقد التوكل عليه سبحانه، والتماس النصر والتأييد منه جل في علاه، فلا يركنوا إلى قوتهم أو قوة أحد من البشر؛ وليعلموا أن التأييد إلى الأبد مرتبط حدوثه بالله تعالى.

٣- ومن الآيات القرآنية الدالة علي التفاؤل وعدم اليأس من رحمته قوله تعالي:" قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ"(الزمر٥٣).

جاءت هذه الآية بعد الآيات التى بسطت الحديث عن وعيد الله وعظيم تهديده وعذابه، الذي يجعل القلوب تتقطع خوفاً ورعباً، فناسب مجيء هذه الآية التى هى أرجى آية في القرآن[١] لتبين رحمة الله وفضله وإحسانه بعباده ، وتفتح باب التوبة على مصراعيه ؛ لكيلا ييأس من سمع ذلك الوعيد إذا تذكر إسرافه على نفسه بالمعاصي ، وفي ذلك بيان لكمال عظمته تعالى ،العظمة الجامعة لأوصاف ملك

(١) ينظر: البرهان فى علوم القرآن للزركشى تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم ج١ ص ٤٤٧ مكتبة دار التراث الطبعة الثالثة سنة ١٩٨٤م.

الملوك في حالة غضبه وعقابه وفي حالة رحمته وعفوه وكرمه – جل شأنه – ، وبيان أن رحمته تغلب غضبه كما جاء في الحديث عن أبي هريرة – ﷺ قال : قال رسول الله – ﷺ– : " لما قضى الله الخلق كتب في كتابه على نفسه ، فهو موضوع عنده : إن رحمتى تغلب غضبى "(١)، وبعد أن عالجت السورة قضية الشرك وتناولتها من كل جانب، فليس أمام العاقل إلا أن يدخل التوحيدُ قلبه ، فإذا وحَّد اللهَ ولم يشرك معه أحداً سواه ، فإن ذلك كفيل بدخوله تحت رحمة الله ، وبغفران جميع ذنوبه ، فعن أنس – ﷺ– قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : " قال الله تعالى : يا ابن آدم إنك ما دعوتنى ورجوتنى غفرت لك على ما كان منك ولا أبالى، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتنى غفرت لك ولا أبالى ، يا ابن آدم إنك لو أتيتنى بقراب الأرض خطايا ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة " (٢)

ومن اللطائف البلاغية للآية القرآنية : "قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ" ... في لفظ " قل " ، على الرغم من صغر هذه الكلمة في مبناها حيث تتكون من حرفين، الأول القاف المضمومة، ذلك الحرف الانفجاري الثقيل المخرج ، يمثّل هذا الحرف فاصلاً يحجز النفس عن الحديث السابق، فأجواء الآيات السابقة أجواء ملتهبة بحرارة الوعيد ولفح التهديد ، فجاء حرف القاف بثقله وثقل حركته يمثل تلك الأجواء، والثاني حرف اللام بخفته وسهولته وقرب مخرجه يبعث إلى الاطمئنان والسكون التام الذي يكفله السكون في حرف اللام وبذلك يتم انتقال النفس من أجواء العذاب والوعيد والغضب إلى أجواء تغمرها الرحمة وتبعث في النفس السكينة .

وقوله تعالى : " يا عبادي " في اصطفاء النظم القرآني لأُم حروف النداء وهي" يا " تشريف للمنادى ؛ ولذلك اختصت بنداء لفظ الجلالة ، وينادى بها البعيد

(١) أخرجه البخاري ح رقم ٧٤٠٤ ومسلم ح رقم ٢٧٥١ ،واللفظ لمسلم.
(٢) أخرجه الترمزي وقال حديث حسن . ينظر: سنن الترمذي تحقيق الشيخ هشام السمير البخاري حديث رقم ٣٥٤٠ دار إحياء التراث العربي سنة ١٩٩٥م/ ١٤١٥هـ.

والمتوسط والقريب – على قول بعض النحاة [١]. وجمهور النحاة على أن " يا " لنداء البعيد ، وهذا الرأى هو الأنسب لسياق الآية فالنداء لمن أسرف على نفسه بالمعاصى التى تجعل من المذنب بعيداً عن الله ، وعن طاعته وامتثال أمره ونهيه ، غافلاً عن مراقبته ؛ ولهذا نودي بـــ (يا) الخاصة بنداء البعيد، فالآية تحكى حال المنادى بأنه قد أسرف وأكثر من المعاصى ، وبذلك صار بعيداً عن الله فنودى بنداء البعيد .

وكذلك فإن المكثر من الذنوب هو من يتسرب القنوط واليأس إلى قلبه ، أما القريب من الله المُقلّ من الذنوب فهذا الأولى في حقه هو الرجاء ، لا القنوط .

وفي قوله تعالى:"يا عبادى..." معانٍ تُلقى بظلالٍ كثيرة ، من الدلالة على عظمة الله في ذاته وصفاته فهو الصبور الحليم ، فعلى الرغم من عصيان العباد لربهم واقترافهم للذنوب مازالوا تحت مظلة العبودية يستظلّون تحتها ، ويحظَون برعاية الله وحفظه لهم.

وفى مجىء النظم القرآنى على هذا التركيب البديع مراعاة لنفوس المخاطبين يتناسب مع الجو العام للآية الذي تملؤه الرحمة والتفاؤل، فقد تسلّط النداء على كلمة "عبادى" ؛ وفي ذلك إيحاء بعناية الله ورعايته لهم ، فلو تسلّط النداء على اسم الموصول وصلته مباشرة (الذين أسرفوا) – مع أنهما محطُّ النظر والملاحظة – لزاد تلك النفوس هلعاً واضطراباً وخوفاً وجزعاً ؛ لتوقُّعها وتوجُّسها مما يأتى بعد النداء ، وخاصة بعد أن أتى ذلك النداء بعد آيات الوعيد .

وفي الآية أضيف المنادى إلى ياء المتكلم العائدة على الله تعالى في قوله " عبادى " إشارة إلى اختصاصه سبحانه وتعالى وانتقائه للمنادى في الآية ، واصطفاؤهم بالنداء من جملة العباد ، والعناية بهم مما يدل على حرصه تعالى على

(١) ينظر:مغني اللبيب لابن هشام ت د/ مازن المبارك و محمد علي حمدالله ج ١ ص ٤١٣ د.ط د.ت .

إقبال هذا الصنف من عباده ومفاطنته لهم ؛ لأنهم بما جنوه على أنفسهم من الذنوب التى تؤدي إلى هلاكهم يجب أن يُنَبهَّوا بالنداء إلى أنهم قد ضلّوا الطريق ووضعوا أنفسهم موضعاً لا ينبغى أن يخلدوا إليه ، وقد ذكّرهم بالهدف الذي خلق العباد من أجله بقوله : " عباد " ، وأنهم وضعوا أنفسهم في موضع بعيد عمن يتصف بالعبودية ، وأنهم قد ضيّقوا على أنفسهم بما اقترفوه من المعاصي ، وجعلوها في دائرة ضيقة أخرجتهم عن الدائرة التي اتسعت لأهل طاعته حتى كادت أنفسهم أن تختنق باليأس، فهذا فرج الله قد أتى فليقبلوا على الله ولينيبوا إليه ويسلموا له .

جاء البيان القرآني بثبوت الياء ل "عبادى"في هذا السياق ، بينما نراه حذف ياء المتكلم ، والإشارة إليه بالكسرة عند حديثه عن الذين آمنوا ، وفي ندائه لهم فقال تعالى:" قل يا عباد الذين آمنوا اتقوا ربكم"(الزمر١٠)

ويذكر العلامة الطاهر بن عاشور في تفسيره سبباً آ لثبوت ياء المتكلم في هذه الآية وحذفها في الآية الأخرى فيقول :(إن الخطاب هنا للذين أسرفوا وفي مقدمتهم المشركون ، وكلهم مظنة تطرُّق اليأس من رحمة الله إلى نفوسهم ، فكان إثبات ياء المتكلم في خطابهم زيادة تصريح بعلامة التكلم ، تقويةً لنسبة عبوديتهم إلى الله تعالى ، إيماءً إلى أن شأن الرب الرحمة)[١].

وهذا الوجه الذي ذكره العلامة ابن عاشور وجه جيد صائب ولا يتعارض مع ما ذكرته سابقاً ؛ لاختلاف جهة التناول ، إلا أنه في كلامه السابق جعل المشركين في مقدمة المخاطبين فى الآية ، وذلك يتنافى مع سياق الآية وجزئها الأخيرالذي يقضى بدخولهم فى رحمة الله وغفران الذنوب عنهم ، وذلك ما نفاه الله تعالى فى قوله:"إِنَّ اللّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ"(النساء٤٨) ، بل إن تدبّر النظم القرآني فى هذه الآية (قل يا عبادى) يقضى بخروج المشركين من عموم الخطاب ؛ إذ الآية تخاطب الذين أسرفوا على أنفسهم أى أثقلوها وأكثروا

(١) ينظر التحرير والتنوير ج ٢٤ ص٤١.

عليها الذنوب، وذلك يقضى بعدم دخول المشركين؛ لأنهم لم يسرفوا على أنفسهم، بل أهلكوها وفعلوا جُرْماً يُخرجهم من الإسراف إلى تضييع الأصل فليس بعد الكفر ذنب .

ولكن يوجَّه رأي الشيخ السابق الذي جعل المشركين يدخلون ضمن المخاطبين فى الآية – على اشتراط توبة المشرك .

وفى التعبيرعن المتحدَّث عنهم باسم الموصول إشارة إلى أن صلة الموصول هى المرادة والمقصودة ، وفى التعبير به تصوير لأفعالهم فيتعاور مع صلته للتنفير عن تلك الأعمال ، وإبراز لها في صورة توحى بكرهها والنفور منها .

جاء في معجم المقاييس : " سرف : السين والراء والفاء أصل واحد يدل على تعدّى

الحدّ والإغفال أيضاً للشيء ... ويقولون : إن السرف:الجهل"[١] فالذى أكثر من اقتراف الذنوب قد تعدّى الحدّ وخرج من دائرة الرحمة ، وهو بفعله ذلك قد غفل عن عظمة الله ومراقبته بانتهاك حرماته ، وأغفل ما فيه صلاح نفسه ، وذلك غاية الجهل .

وجاء فى اللسان من معانى سرف : " سرف الماء : ما ذهب منه فى غير سقى ولا نفع . يقال : أروت البئر النخيل وذهب بقية الماء سرفاً"[٢]، وفى هذا المعنى إشارة إلى أن خطاب الآية لأولئك الغافلين عن الأعمال التى تعود على أنفسهم بالنفع والصلاح بانشغالهم فيما لا نفع فيه ، فالعاقل لا ينبغى له ذلك ، فكيف بمن انشغل بما فيه ضرر على نفسه ؟ ! فناداهم الله لتنبيههم وإيقاظهم من غفلتهم ليتداركوا ما فاتهم ولا ييأسوا من رحمة الله وسعة مغفرته .

(١) ينظر معجم مقاييس اللغة:مادة "سرف"
(٢) ينظر لسان العرب مادة سرف

ومن معانى هذه المادة (سرف) الضراوة وكأنهم لكثرة اقترافهم للذنوب أصبحت لديهم ضراوة على فعلها وجرأة وشَرَه للإكثار منها.[١]

" والسُّرْفة"دويبة صغيرة تأتى الشجرة فتأكل ورقها وتهلك ما بقى منه بنسيجها".[٢]، وفى هذا إيحاء تصويرى رائع لتلك الذنوب التى اقترفها المخاطبون فى الآية ، وتصوير للضّرر الذى تلحقه الذنوب بأنفسهم من إفسادها وإهلاك المسرف فى الذنب ، فتلك الدويبة (السُّرْفة) على صغرها وحقارتها إلا أنها تهلك الشجرة وتسلب منها لباسها – من الورق – وحياتها، وكذلك الذنوب فقد يستصغرها المذنب ، ولكنها تسلب من نفسه حياتها وتعرّيها من لباس التقوى الذي كان يسترها.

ومما سبق يتبين إعجاز القرآن وبديع نظمه في شموله لكل تلك المعانى التى تخاطب كل من أسرف بالذنوب على اختلاف أحوالهم شمولاً يتناسب مع شمول رحمة الله وسعة مغفرته ، وفى الإبانة عنهم بالفعل الماضى (أسرف) دلالة على أن ذلك الإسراف ما زال فعلاً من أفعالهم قابل للنقص ، وذلك يكشف عن حال قلوبهم بوجود أثر للفطرة الأولى ، من قبول الخير ورفض الشر ، ومن حُبّها للأول – الخير – ورغبتها في ترك الآخر ؛ ولذلك جاء هذا التعبير في سياق الرحمة ، وخاطبهم بخطاب فيه الرحمة والعطف ، أما إذا استحال ذلك الإسراف إلى أن أصبح صفةً لازمة لهم فإن التعبير عنهم يكون بالصفة (مسرف) ؛ ولذلك استخدم البيان القرآنى هذه الصيغة – الصفة – فى سياق يوحى بالكُره والبغض للمتصفين بها كقولـــه تعالى:" وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ"(الأنعام ١٤١)،

(١) لسان العرب مادة سرف
(٣) المرجع السابق

وقوله تعالى:"على أنفسهم"،ففى اصطفاء النظم القرآني لحرف الجر (على) الدال على الاستعلاء إيحاءٌ بكثرة تلك الذنوب،وثقلها[١]،وما في ذلك من تصوير يجعل منها أشياء محسوسة ، ولها جرْمٌ ثقيل ، تكلّف المسرفون حمله فأهلكهم ، ثم تسلّط ذلك الحرف على قوله تعالى :"أنفسهم"،و فى ذلك تنفير من تلك الذنوب ؛ لأن ضررها – الذى أوحى به الفعل (أسرفوا) – عائد على نفس الفاعل .[٢]

ولما كان النداء فى القرآن مشفوعاً بالطلب – من أمر أو نهي – اصطفى البيان

القرآنى الطلب المناسب للمنادى في هذه الآية ، فقد اختار هنا – عند نداء الذين أسرفوا – الطلب عن طريق النهى الذي يقتضى إقلاعهم عن أعمال أو أحوال يمارسونها ، أما عند نداء الذين آمنوا– فى أول السورة – [٣]فقد اختار الطلب عن طريق الأمر المباشر بالفعل وهو قوله تعالى: " اتقوا " ، أما مع الذين أسرفوا فقد شفع النداء بطلب ، واختار من نوعيْ الطلب النهى؛ لأنه أسهل من الأمر ، إذ يقتضى الإقلاع عن فعل ، والإقلاع عن فعل أسهل من تأسيسه ، وخاصة إذا كان ذلك الفعل المنهى عنه غير متأصل فيهم وقلوبهم غير متعلقة به ، بل إنها كارهة لذلك الفعل ، فقد أثقل نفوسهم وضاقت به ،وهذا ما أوحى به التعبير بالإسراف والتعبير بـــ (على) الدالة على الاستعلاء كما وضحت ذلك سابقا.

وهو فى هذه الجملة نهى حقيقى طلب فيه من العباد المسرفين الكفُّ عن القنوط من رحمة الله على جهة الاستعلاء .

وفي جملة النهى هذه لطائف بلاغية جمة ، منها:– أن من أوجه " لا " أن تكون موضوعة لطلب الترك ، وتختص بالدخول على المضارع وتقتضى جزمه

(١) ينظر روح المعاني للآلوسي ج٢٤ص١٤
(٢) المرجع السابق .
(٣) قوله تعالي:" قل يا عباد الذين آمنوا اتقوا ربكم للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة "آية ١٠

واستقباله.[1]، وقد دخلت " لا " في الآية على الفعل المضارع (تقنطوا) فطلب بها ترك القنوط في الاستقبال . فـــ " لا " تقف حاجزاً بين ما مضى وما هو آتٍ ، ويوحى عملها هذا في الكلام بأن عملها في النفس هو أن تقطعها عن تلك الأجواء السابقة من الشعور بالذنب والإحباط لاقترافها المعاصى .

وتمضى بهم " لا " فى رفق ولين وجوّ من العطف والرحمة بعد ذلك الماضى الكئيب الثقيل الذى ملأ نفوسهم وحشةً وهماً والذى فهم من قوله " الذين أسرفوا على أنفسهم" لتنقل نفس ذلك المذنب إلى مستقبل مليء بالأمل الذى يحرّر تلك النفس المكبّلة بالمعاصي التي جعلت صاحبها يعيش في ظلمة وضيق ، وتنقلها إلى سعة رحمة الله فيشرح الله صدره وينير له قلبه قال تعالى:" أَفَمَنْ شَرَحَ اللّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ" (الزمر٢٢) ؛وفى ذلك إغراء للانتهاء عن تلك المعاصى بهذه المعاملة الكريمة .

و" القنوط" هو اليأس فالقاف والنون والطاء كلمة صحيحة تدل على اليأس من الشىء) [2]، وفي تعبير البيان القرآنى عن القنوط بالفعل المضارع المسند إلى ضمير الغيبة أسرار عظيمة ، فانفتاح دلالة المضارع تحصرها وتحيط بها كلمة " لا " المنتهية بألف الإطلاق ؛ فكما أحاط القنوط بقلوب أولئك المسرفين وقطعها عن التوبة تأتى كلمة " لا"؛ لتجزم ذلك القنوط وتقطعه حتى لا يستشرى فى نفس المذنب، بل وتحيط بذلك القنوط، وتطلق تلك القلوب وتحررها منه .

وفى ضمير الرفع (الواو) المسند إليه فعل القنوط ربطٌ جميل ينقل النفس فى سرعة من "لذين أسرفوا" إلى" لا تقنطوا"،وتذكير يقوم به ضمير الغيبة (الواو) بنداء الله العظيم لهم بأنهم عباده، وما فى تلك الإضافة من تشريف ورعاية .

(١) ينظر مغني اللبيب لابن هشام ص ٣٢٣.
(٢) ينظر :معجم المقاييس ج٥ ص ٣٢.

وفى قوله " من رحمة الله" التفات من التكلم إلى الغيبة فالنظم فى أول الآية جرى على طريق التكلم في قوله تعالى:"يا عبادي" ثم انتقل إلى طريق الغيبة في قوله تعالى: " رحمة الله " وكان مقتضى الظاهر أن يقال : من رحمتي ؛ ولكن النظم عدل عن إضافة الرحمة إلى ياء المتكلم كما فعل في أول الآية ، إلى مخالفة ما يقتضيه ظاهر المقام ، فأضاف الرحمة إلى الله ؛ التفاتاً من ضمير المتكلم إلى الاسم الغائب ؛ لأن في إضافتها إليه سعةً للرحمة ، إذ أضيفت إلى الله الذي هو أعظم الأسماء ؛ لأنه العلم المحتوى على معانى جميع الأسماء.(١)

ومن لطائف هذا الالتفات وفوائده البلاغية أيضاً ، إدخال الطمأنينة فى قلوب المخاطبين ،وإشعار المقصودين بالخطاب بأن الرجاء والأمل فى مغفرة ذنوبهم ودخلوهم فى رحمة الله عظيم وكبير ؛ فصرف الأسلوب عن التكلم ، وأضاف الرحمة إلى الاسم الأعظم الجامع لجميع صفات الجلال والإكرام ؛ وإذا كان اسمه تعالى (الله) هو(أعظم أسمائه سبحانه وأجلها ؛ فالرحمة المضافة إليه يجب أن تكون أعظم أنواع الرحمة والفضل) (٢) .

وهذا المعنى البلاغى للالتفات فى هذه الآية يؤكده النظم القرآني بخصائص نظمية أخرى تتضافر على تأدية المعنى المقصود من قوله تعالى:" رحمة الله" والتي من ضمنها بيان عظمة رحمة الله وسعتها وشمولها .

وقد اصطفى البيان القرآني التعبير بالرحمة فى قوله تعالى : " من رحمة الله " دون غيرها كالمغفرة ؛ لأن الرحمة تتضمن المغفرة ، بل فيها زيادة معنى ، من الإشعار بالعطف والمواساة ، فتلك القلوب المنكسرة التي تملَّكها اليأس ، وأثخنتها الذنوب هي في أشدِ الحاجة إلى يد رحيمة ، ودفء نفسى يعوّضها عن الحرمان

(١) ينظر : تفسير البحر المحيط لأبي حيان تحقيق الشيخ عادل عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض ج ٧ ص ٤١٦ .دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط١ سنة ١٩٩٣م /١٤١٣هـ.

(٢) ينظر :نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي ج ١٦ ص ٥٣٤ .يتصرف دار الكتاب الإسلامي بالقاهرة د.ت ،د.ط و التفسير الكبير ومفاتيح الغيب للرازي ج ٢٧ ص ٥ .دار الفكر للطباعة والنشر د. ط د.ت .

الذى كانت تعيشه ؛ لبُعدها عن الله والضيق الذي كانت تكابده ؛ لتنطلق في أرجاء الرحمة الواسعة ،وتعيش بهناء وراحة تحت رحمة الله ورعايته بعد التخبط الذى كانت فيه .

وفى تنكير النظم للرحمة وإضافتها إلى لفظ الجلالة دلالة على عظيم رحمته تعالى وسعتها وشمولها التائب وغيره [١] ، وتعريفها عن طريق تلك الإضافة فيها من الأسرار ما لا نجدها لو عُرِّفت بطريق آخر، ومن تلك الأسرار : الدلالة على عظمتها وسعتها فإن المضاف يكتسب الفضل والشرف على قدر فضل وشرف المضاف إليه، فالمعنى الذي نفهمه عند قولنا : عفو الملك أو مكرمة الملك ، يختلف عن المعنى المفهوم من قولنا : عفو المدير أو مكرمة فلان من عامة الناس ، فكيف إذا أضيفت هذه الصفات إلى ملك الملوك – جل شأنه وتقدست أسماؤه – ؟! وفي إطلاق الرحمة ، وعدم تقييدها إطماع فيها.

إنها رحمة واسعة تعجز العقول عن إدراكها والإحاطة بها كما عجزت عن الإحاطة أو الإدراك بصاحب تلك الرحمة سبحانه وتعالى– .

ثم أكد النظم معنى سعة رحمة الله وعظمها بجملة من المؤكدات لإحكام الصياغة وتأدية المعنى؛ مثل : إعادة ذكر اسم الله في قوله : " إن الله يغفر الذنوب جميعاً " ، وقرن به لفظة (إنَّ) المفيد لأعظم وجوه التأكيد ، وكل ذلك يدل على المبالغة في الوعد بالرحمة ، ثم أردف قوله:" إن الله يغفر الذنوب" باللفظ الدال على التأكيد فقال "جميعاً " وهذا أيضاً من المؤكدات ، ثم وصف الله نفسه بكونه غفوراً رحيماً على صيغة المبالغة ، بالإضافة إلى تأكيد الجملة نفسها بـــ (إنّ) وبضمير الشأن ، وبإفادته أسلوب القصر ، في قوله تعالى :" إنه هو الغفور الرحيم "،ومعناه أنه لا غفور ولا رحيم إلا هو ، وفى أسلوب القصر ما يفيد الدلالة المؤكدة على كمال الرحمة والغفران .[٢]

(١) ينظر روح المعاني ج ٢٤ ص ١٤ .
(٢) ينظر التافسير الكبير للرازي ج ٢٧ ص٥ بتصرف .

* ومن الآيات التي تدعو إلى التفاؤل وعدم اليأس فى إجابة الدعاء قوله تعالى:" وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُون"(البقرة ١٨٦).

الدعاء حالةٌ نفسية يعيشها الإنسان، ويسبب له الراحة عندما يلجأ إلى الله تعالى، خاصة أنّ حياة الإنسان اليومية مليئة بالمشاكل والصعوبات، وهو بحاجة ليتكلم عنها مع أحد، فالدعاء تعزيز للصلة بين الإنسان وربه، وراحةٌ نفسية، وبابٌ لتلبية الحاجات. قال رسول الله صلي الله عليه وسلم :"ألا أدُلُّكُمْ على سلاحٍ يُنجيكُم من أعدائكُم ويُدِرُّ أرزاقَكُمْ؟ قالوا: بلى. قال: تدعُونَ ربَّكُمْ باللَّيْلِ والنهار، فإنّ سِلاحَ المؤمن الدُّعَاءُ".

والآية الكريمة تحثٌّ على الدعاء، والدعاء هو الطلب من الله الخالق، الذي بيده ملكوت كلّ شيء، وبيده خزائن الأرض والسماوات وما فيهما، لتحقيق رغبات الإنسان ، وبالدعاء يلجأ الإنسان إلى الخالق المُنْعِم، فتتحقَّق الراحةُ النفسيّة بالطَّلبِ منه، والرّاحةُ العمليةُ بالإجابَة بأشكالها المختلفة ،ففى الآية الكريمة من الحنان ما يلامس القلب، ويُسقط الحجب بين الإنسان وربه. وعن سبب نزول هذه الآية (روى ابن جرير وابن أبى حاتم وغيرهما أن أعرابيا جاء إلى النبي – ﷺ – فقال : أقريب ربنا فنناجيه ، أم بعيد فنناديه ؟ فسكت عنه ؛ فأنزل الله الآية . وأخرج عبد الرزاق عن الحسن قال :سأل الصحابة رسول الله – ﷺ– أين ربنا ؟ فأنزل الله– عز وجل– " وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي")[١]

وهذه الآية الكريمة وردت في وسط آيات الصيام قبلها قوله تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ" ثم جاءت آيتان ثم جاءت هذه الآية ثم بعدها آية تتعلق بالصيام: "أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ

(١) ينظر :تفسير القرآن العظيم لابن كثير ت سامي بن محمد السّلامة ج ١ ص ٥٠٦ . د.ط د.ت .

إِلَى نِسَائِكُمْ" ؛ ولمجيئها في وسط آيات الصيام مع أنه ليس فيها نص يتعلق بالصوم أو الفطر أو رمضان، فيه إيماء إلى أن رمضان من أعظم أوقات الدعاء ومن أحراه بالإجابة ؛ وكأنها تشير إلى أن رمضان من أعظم مواسم الدعاء لفضيلته ولحال الداعي فيه، وقد ورد ما يؤكد ذلك، فقد قال النبي ﷺ: "ثلاثة لا تُرد دعوتهم: الإمام العادل، والصائم حتى يفطر، ودعوة المظلوم "[1] .

يقول ابن عاشور رحمه الله: (وفي هذه الآية إيماء إلى أن الصائم مرجوٌّ الإجابة، وإلى أن شهر رمضان مرجوة دعواته، وإلى مشروعية الدعاء عند انتهاء كل يوم من رمضان)[2]، فالآية توسطت آيات الصوم ، وهذا يعني أن الدعاء ديدن الصائم و أن للصائم دعوة لا ترد كما ورد في الأثرما لم تكن بقطيعة رحم.

ومن عظمة الدعاء و منزلته عند الله أن الله أحاطه بآيات الصوم الذي قال عنه في الحديث القدسي "الصوم لي و أنا أجزي به"[3]؛لأن الصوم من شعائر الإخلاص لله؛ لأنه شَعيرة غير ظاهرة الأثر على صاحبها ما لم يرائي ، فكذا الدعاء أراده الله أن يكون خالصاً له و هو الذي يجزي به من دون واسطة نبي أو ولي.

ومناسبة الآية لما قبلها أنه تعالي لما تضمن قوله " لتكبروا الله علي ما هداكم ولعلكم تشكرون" طلب تكبيره وشكره، بيَّن أنه مطلع علي ذكر من ذكره وشكر من شكره، يسمع نداءه ويجيب دعاءه ، وقال البيضاوي في وجه الاتصال(: واعلم أنه تعالى لما أمرهم بصوم الشهر ومراعاة العدة ، وحثهم على القيام بوظائف التكبير

(١) أخرجه الترمذي ح رقم ٣٥٩٨ وابن ماجة ح رقم ١٧٥٢
(٢) ينظر التحرير والتنوير ج ٢ ص ١٧٩
(٣) رواه البخاري ح رقم ١٨٩٤ ومسلم ح رقم ١١٥١.

والشكر ، عقبه بهذه الآية الدالة على أنه خبير بأحوالهم ، سميع لأقوالهم مجيب لدعائهم ، مجازيهم على أعمالهم ، تأكيدا له وحثا عليه).[١]

ومادمت قد ذقت حلاوة ما أعطاك الحق من إشراقات صفائية في الصيام ، فإذا وجد الصفاء بين العابد وهو الإنسان والمعبود وهو الرب ، ويثق العابد بأن المعبود لم يكلفه إلا ما يعود عليه بالخير يحسن ظنه بربه فيلجأ إليه في كل شيء ويسأله عن كل شيء ، ولذلك جاء قوله عز وجل : "وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ" ونلحظ أن "إذ"جاءت، ولم تأت "إن"،ولو بحثنا عن علة استعمال "إذا" الشرطية دون غيرها من أدوات الشرط عموما و"إن" الشرطية خصوصا ، نجد أن من خصوصية "إذا" الشرطية (دخولها علي المتيقن والمظنون والكثير الوقوع بخلاف "إن" فإنها تستعمل في المشكوك والموهوم والنادر)[٢] فالحق سبحانه وتعالي يؤكد لك أنك بعدما ترى هذه الحلاوة ستتجه إلي الله تعالي بالدعاء؛والله سبحانه وتعالي سيستجيب لك كما ورد عن أبي هريرة – رضي الله عنه – عن النبي – ﷺ: (ثلاثة لا ترد دعوتهم، الصائم حتى يفطر، والإمام العادل، ودعوة المظلوم، يرفعها الله فوق الغمام وتفتح لها أبواب السماء، ويقول الرب: وعزتي لأنصرنك ولو بعد حين)[٣]، فما دام سبحانه سيجب الدعوة، وأنت قد تكون من العامة لا إمامة لك، وكذلك لست مظلوماً، إذن تبقى دعوة الصائم.

والخطاب في قوله:" سَأَلَكَ"للنبي – ﷺ – وإن لم يجر له ذكر في اللفظ ففي الآية الكريمة التفات عن خطاب المؤمنين كافة بأحكام الصيام ، إلى خطاب الرسول

(١) ينظر:تفسير البضاوي تقديم محمد عبد الرحمن المرعشلي ج ١ ص ١٢٥ دار إحياء التراث العربي بيروت لبنان د.ط د.ت

(٢) ينظر : الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ت شعيب الأرنؤط ص ٣١٩ مطبعة مؤسسة الرسالة ط١ سنة ٢٠٠٨م.

(٣) أخرجه الترمذي ح رقم ٣٥٩٨ وابن ماجة ح رقم ١٧٥٢.

– ﷺ – ؛ بأن يذكرهم ويعلمهم ما يراعونه في هذه العبادة وغيرها من الطاعة والإخلاص والتوجه إليه وحده بالدعاء الذي يعدهم للهدى والرشاد ، وجعلت بأسلوب الفتوى على تقدير السؤال لتنبيه الأذهان ، والمراد أن يؤمنوا بأن الله تعالى قريب منهم ليس بينه وبينهم حجاب ولا ولي ولا شفيع يبلغه دعاءهم وعبادتهم ، أو يشاركه في إجابتهم أو إثابتهم ؛ ليتوجهوا إليه وحده حنفاء مخلصين له الدين، والالتفات لتعظيم أمر النبي – ﷺ – ورفعة شانه وأنه المسئول عن أمر أمته .

عندما نقرأ في كتاب الله كلمة "سأل" نجد أن مادة السؤال وردت فى القرآن الكريم بصيغة الفعل المضارع "يَسْأَلُونَكَ". كقوله :" يَسْأَلُونَكَ عَنِ الخمر والميسر قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ" البقرة ٢١٩، وقوله: "وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ العفو"(البقرة٢١٩) ، وقوله: "يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ ما أَنْفَقْتُمْ مِّنْ خَيْرٍ" (البقرة٢١٥) ، وكل "يَسْأَلُونَكَ" يأتي في جوابها"قُلْ" إلا آية واحدة جاءت فيها"فقل" بالفاء، وهي قول الحق: "وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الجبال فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً "(طه١٠٥)، ولونظر إلى الدقة الأدائية نجد أن الأولى "قل"، وهذه"فقل"، فكأن، "يَسْأَلُونَكَ عَنِ الخمر والميسر" يؤكد أن السؤال قد وقع بالفعل، ولكن قوله:"وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الجبال" ، فالسؤال هذا ستتعرض له؛ فكأن الله أجاب عن أسئلة وقعت بالفعل فقال:"قل" ، والسؤال الذي سيأتي من بعد ذلك جاء وجاءت إجابته بـــ " فقل" أي أعطاه جواباً مسبقاً، إذن ففيه فرق بين جواب عن سؤال حدث، وبين جواب عن سؤال سوف يحدث، لكن نحن الآن أمام آية جاء فيها سؤال سيقع في المستقبل وكانت الإجابة مباشرة: "وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيب". فلم يقل: فقل: إني قريب، على غرارقوله:" وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الجبال فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً " ، فكان القياس أن يقول: و إذا سألك عبادي عني فقل ربي قريب يجيب دعوة الداع، لكنه تبارك و تعالى تكفل بالإجابة بنفسه وقال: " أُجِيبُ

دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ " فابتدأ جوابه بأنه قريب للدلالة على عدم حاجته للوسطاء و الأولياء أولاً ، وللدلالة على حفاوته بالدعاء و بالسائلين ثانياً.

لم يقل: فقل لهم إني قريب؛لأن الإجابة المباشرة تعزِّز الصلة الوثيقة والقوية مع الله تعالى، فالإجابة تتبع السؤال مباشرة ،فكلمة "قل" تطيل القرب، ويريد الله أن يجعل القرب في الجواب عن السؤال بدون وساطة ، لقد جعل الله الجواب منه لعباده مباشرة، وإن كان الذي سيبلغ الجواب هو رسوله – ﷺ – ؛ ولكي يبين لهم القرب حذف كلمة "قل"، فجاء قول الحق : "وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ"،إنها الآية الوحيدة التي خالفت بقية الآيات التي تبدأ بسؤال الناس للنبى الكريم فمن عظمة الله أنه سبق المؤمنين بالسؤال و هم لم يسألوا بعد، و كأنه سؤال افتراضى ، فإن الله هو الذي وضع السؤال و بادر بالإجابة من قبل أن يُسأل حباً منه بالدعاء و بسرعة الإجابة فانظر إلى واسع رحمته، فلم يتحدث بضمير الغائب عن ذاته فلم يقل"يجيب دعوة الداع" ؛ لأنه يدل على البعد و العلو ، بل نسبها لنفسه للدلالة على قربه من السائلين .

وقال" وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي" ولم يقل:وإذا سألك المؤمنون أوإذا سألك المسلمون، فذكرهم بوصف العبودية وأضافهم إلى نفسه تعالى، فهذا يقتضي التشريف، فهؤلاء أهل العبودية الخاصة، وهم أهل الإيمان، وأهل الاستجابة والطاعة، فأضافهم إليه تشريفاً وتنويهاً بذلك المقام، فأعظم مقام للمخلوق كما يقول العلماء هو مقام العبودية؛ ولهذا وصف الله تعالى به نبيه فى مقامات التشريف كالإسراء: :قال تعالى " سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ"، وفى هذا ما يدل على أن الدعاء من أشرف العبادات التى يندرج الداعى به فى سلك العبودية،وهناك فرق بين "عبادى "بالياء و "عبادِ"بدون الياء ، فـــ"عبادى" تشير إلى عدد أكبر من "عباد" كقوله تعالى للدلالة على الكثرة " قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ "

(الزمر ٥٣)و المسرفون كُثْر، وكقوله: "وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ " (الاسراء٥٣)؛ لأن أكثرهم يجادل ، أما للقلة فمثل قوله تعالي" فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ "(الزمر١٨)،وهؤلاء قلة ،وقوله " قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ "(الزمر١٠) والمتقون قلة ، والآية التى نحن بصدد الحديث عنها جاءت "عبادى" بالياء،فالياء تعني أن مجموعة العباد أكثر ، أى: يجيبهم كلهم على اختلاف إيمانهم و تقواهم ، والضمير فى " عِبَادِي" و " عَنِّي"و" فَإِنِّي" لله عزوجل وهو من باب الالتفات والخروج من الغائب فى قوله "لتكبروا" إلى المتكلم ، واستخدام ضمير المتكلم دون ضمير الغائب فيه دلالة على كمال العناية بالأمر، وليس المقصود بقوله" عَنِّى" عن ذاته تعالى ؛ لأن الجواب وقع بقوله "فَإِنِّي قَرِيبٌ "والمعنى: أن الله قريب من كل مخلوق لا قربا ماديا ولكنه بمعنى أن سلطته نافذة فى كل مخلوق ، وعلمه محيط بكل شىء فهو يسمع أقوال العباد ويرى أعمالهم (والقرب المنسوب إلى الله تعالى يستحيل أن يكون قربا بالمكان ، وإنما القرب هنا عبارة عن كونه تعالى سامعا لدعائه ،مسرعا فى إنجاح طلب من سأله ،فمثل حالة تسهيله ذلك بحالة من قرب مكانه ممن يدعوه ،فإنه لقرب المسافة يجيب دعاءه)[1] ، وإنما جعلوا الكلام هنا تمثيلا؛ لأن القرب والبعد الحقيقى إنما يكون باعتبار المكان، وهو تعالى منزه عن الانحصار فى المكان ، وأسند القرب إلى ذاته مع تنزيهه عن مماثلة خلقه وإثبات صفة الكمال له التى يفهم بها المراد من هذا القرب ، وقربه فى الآية بسماع الدعاء وإجابته وهى من متعلقات القدرة والرحمة ، والغرض منه تقرير توحيد العبادة

(١) ينظر: البحر المحيط ج ٢ ص ٢٠٥

وقال "فَإِنِّي قَرِيبٌ "ولم يقل "أنا قريب " لما فى الأولى من التوكيد بإن المشددة أما "أنا" فغير مؤكدة،واستخدام صفة" قريبٌ ، " دون الفعل الدال على القرب ليدل على ثبوت القرب ودوامه .

أما قوله"أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ "أى يجب أن يُدعى وحده بدون واسطة ؛ لأنه هو الذي خلق الإنسان ويعلم ما توسوس به نفسه ، وهو الذى يجيب دعوته وحده بدون واسطة تعينه أو تساعده أو تنوب عنه فى الإجابة وقضاء الحاجة أو تؤثر فى إرادته ،وعبر بالفعل "أُجِيبُ " ؛ للدلالة على تجدد الإجابة واستمرارها ، ولم يقل أجيب الداع وإنما قال" دَعْوَةَ الدَّاعِ" ؛ لأن الدعوة هي المستجابة و ليس شخص الداع ، و في هذا إشارة دقيقة جداً إلى مكانة الدعوة بغض النظر عن شخصية الداع،وقال " دَعْوَةَ الدَّاعِ " بصيغة العموم؛ للدلالة على أنه يجيب دعوة كل داع و ليس فقط دعوة السائلين ، فوسع دائرة الدعوة و لم يقصرها على السائلين ويقل أجيب دعوتهم .

وقال " أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ" و لم يقل "إن دعان" و في هذا معانٍ بلاغية غاية في الدقة، منها أنه استخدم أداة الشرط "إذا" و لم يستخدم أداة الشرط " إن" ، والفرق بينهما، أن (إن) تستخدم للأحداث المتباعدة و المحتملة الوقوع و المشكوك فيها و النادرة و المستحيلة كقوله " وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا "(الحجرات٩)؛ لأن الأصل عدم اقتتال المؤمنين ، بينما (إذا) تعني المضمون حصوله أو كثير الوقوع ، مثل قوله" كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ "(البقرة ١٨٠) ؛لأن الموت واقع لا محالة ؛ و لذلك نرى أن كل أحداث يوم القيامة تأتي ب (إذا) و لم تأت بـــ (إن) ، مثال ذلك قوله " إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا" (الزلزلة١)و قوله " إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ"(التكويرمن١ :٣)و غيرها من أحداث يوم القيامة حيث لم تأت أيا منها بأداة الشرط (إن) ؛لأنها تحتمل الندرة و عدم الوقوع، و من روعة هذا البيان هو حينما تأتيان معاً في موضع واحد فيستخدم (إذا)

للكثرة و (إن للندرة) مثل قوله تعالى " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا"(المائدة ٦) ،فجاء بأ (إذا) للوضوء ؛ لأنه كثير الوقوع و (إن) للجنب ؛ لأنه نادر الحصول ،ومثل قوله " فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ" (النساء٢٥)، فالإحصان متكررو الفاحشة من النوادر.

فمن هذا نفهم أن المعنى من قوله تعالى "إذا دعانِ" أنه يشير إلى كثرة الدعاء و بأنه دعاء متكرر مستمر كثير و ليس نادراً قليلاً ؛ لأن الله يغضب إن لم يدعَ ، و القلب الذي لا يدعو قلبٌ قاسٍ ، ألم تر إلى قوله تعالى" فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ* فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ "(النعام ٤٣،٤٢)، و قدم جواب الشرط على فعل الشرط ، فلم يقل (إذا دعان أستجب له) ؛ وذلك للدلالة على قوة الإجابة و سرعتها، كما أنه تعالى لم يعلق الإجابة بالمشيئة كأن يقول (أجيبه إن أشاء) ، بل قطع و أكد بأنه يجيب دعوة الداع .

وقوله "فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي " الاستجابة هنا هي الإجابة بعناية واستعداد ،فالسين والتاء للمبالغة ، والمعنى : وإذ كنت قريبا منهم مجيبا لدعوة من دعانى منهم فليستجيبوا هم لى بتحري ما أمرتهم.

أما قوله تعالي: "وَلْيُؤْمِنُواْ بِي" ، أي: أن يؤمنوا به سبحانه إلها حكيما ،فليس كل من يسأل يستجاب له بسؤاله ؛ لأن الألوهية تقتضي الحكمة التي تعطي كل صاحب دعوة خيراً يناسب الداعي لا بمقاييسه هو ولكن بمقاييس من يجيب الدعوة.

ثم ذيل الآية بقوله" لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُون" ،والرشد والرشاد ضد الغي والفساد ، فالأعمال إذا لم تكن صادرة بروح الإيمان لا يرجى أن يكون صاحبها راشدا مهديا.

والآية الكريمة دلت على أن التفاؤل أحد أهم أسباب استجابة الدعاء لما فيه من يقين بالإجابة من المولي عز وجل. بالاضافة إ لى ضرورة النظر للأمام بنظرات إيجابية تبنى المستقبل ولا تهدم أمال الإنسان بدعوات التشاؤم.

وفى نهاية البحث اتذكر قول القاضى الفاضل عبد الرحيم بن على البيسانى لما قال:(إنى رأيت أنه لا يكتب إنسان كتابا فى يومه ؛إلا قال فى غده :لو غير هذا لكان أحسن ، ولو زيد هذا لكان يستحسن، ولو قدم هذا لكان أفضل ، ولو ترك هذا لكان أجمل، هذا من أعظم العبر ، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر.

الخاتمة

نصل بعد هذه الدراسة لحديث القرآن عن التفاؤل ، ودراسة هذه الآيات دراسة بلاغية إلى نهاية البحث ، ولا أدعى استيفاء المراد كاملا، ولا الإحاطة بمرامى القرآن فى آيات التفاؤل الواردة فيه ،وإنما هذا جهد مقل لم تعنه ظروفه وضاقت وسائله عن سعة طموحه .

فقد وصلت بعد تجوالى فى رحاب القرآن الكريم إلى نتائج عدة أهمها:

١- إن القرآن الكريم مفتاح لكل خير وسعادة في الدنيا والآخرة ،وهو أعظم مصدر للتفاؤل وإنشراح الصدر وطمأنينته ،ومن أقبل عليه تلاوة وتدبرا ،وعملا مخلصا لله نال تلكم البركات .

٢- إن الناظر في كتاب الله عز وجل لا يجد ما يدل على مصطلح التفاؤل صراحة بلفظه، ولكن المتدبر لآيات ربنا سبحانه وتعالي يرى بين ثنايا الكلام المبارك الدعوات الواردة بلفظ غير صريح لكنها دال على قيمة التفاؤل، والداعية لحسن الظن بالله.

٣- لمفهوم التفاؤل أصل في اللغة العربية حيث يرجع التفاؤل إلي الفأل ،وهو قول أو فعل يستبشر به ، وتفاءل بالشيء تيمن به .

٤- لمفهوم التفاؤل جذور عميقة في التراث الإسلامي – كما ورد في أقوال كثيرة للرسول ﷺ – ونهي عن الطيرة والتشاؤم ،وكان يحب الفأل الصالح :الكلمة الطيبة ،وحض المسلم علي أن يكون حسن الظن بربه.

٥- من خلال البحث تبين لنا أن سورة الطلاق تدعو للتفاؤل والتثبيت ، ورسالة لكل حزين ومهموم،فهي تحمل الكثير من أيات التفاؤل والتحفيز على التثبيت لما فيها من رسائل ربانية تدعو للتفاؤل وقد تناول البحث هذه الآيات بالشرح والتحليل.

٦- حُشدت سورة الطلاق بعدد من الجمل التي تفتح لكل مغموم ومهموم آفاق الأمل علي الرغم من قصرها ، فمن مر في حياته بزواج فاشل أو مرض أو صراع نفسي أو خسارة مالية ،فعليه أن يتدبرما ورد من آيات التفاؤل والتثبيت في هذه السورة الكريمة.

٧- أرجي آية في القرآن الكريم هي قوله تعالي:" قُلْ يَا عِبَادِيَ الّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللّهِ"

٨- بالدعاء يلجأ الإنسان إلى الخالق المُنْعِم، فتتحقَّق الراحةُ النفسيّة بالطَّلبِ منه، والرّاحةُ العمليةُ بالإجابَة بأشكالها المختلفة ،ففى قوله تعالي" وإذا سألك عبادي عني فإني قريب ..."من الحنان ما يلامس القلب، ويُسقط الحجب بين الإنسان وربه.

وختاما أقول إن هذا البحث متواضع جداً قياساً بعظمة الموضوع الذي تم البحث فيه، والساحة التي كانت مدار البحث ، فحديث القرآن عن التفاؤل موضوع كبير ؛ فكلام الله تعالي أعظم مصدرا للتفاؤل وإنشراح الصدر وطمأنينته، ولكن هذا ما وفقني الله لذكره فما كان من توفيق فمن الله وحده، وما كان من خطأ أو نسيان فمني ومن الشيطان والله ورسوله منه براء ولله العزة والكمال والحمد لله رب العالمين.

فهرس المصادر والمراجع

أولا : القرآن الكريم

- الإتقان فى علوم القرآن للإمام جلال الدين السيوطى تحقيق مركز الدراسات القرآنية مطبعة الأمانة العامة للشئون العلمية .
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم المسمى بتفسير أبى السعود دار إحياءالتراث العربى بيروت لبنان (دت).
- أسرار البلاغة فى علم البيان – عبد القاهر الجرجانى – علق عيه محمود شاكر – مطبعة المدنى ط٣ ١٩٩٢م .
- أساس البلاغة للزمخشرىتحقيق محمد باسل عيون السود دارالكتبالعلمية بيروت لبنان ط ١ سنة ١٩٩٨م.
- أضواء البيان فى إيضاح القرآن بالقرآن – محمد الشقيطى – عالم الكتب – بيروت .
- إملاء ما من به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات فى جميع القرآن للعكبرى – دار الكتب العلمية – بيروت .
- البحرالمحيط فى أصول الفقه للزركشى تحقيق د عبدالستار أبو غدة والشيخ عبدالقادر عبدالله العانى .دار الصفوة للطباعة والنشروالتوزيع (بدون).
- بدائع الفوائد ابن القيم الجوزيه تحقيق على بن محمد العمران دارعالم الفوائد للنشروالتوزيع (بدون).
- البرهان فى علوم القرآن للزركشى تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم مكتبة دار التراث الطبعة الثالثة سنة ١٩٨٤م.
- بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز للفيروز ابادى تحقيق الاستاذ محمد على النجار القاهرة ط٣ ١٩٩٦م .

- بغية الإيضاح للشيخ عبد المتعال الصعيدى .
- التبيان فى تفسيرالقرآن للطوسى دار إحياء التراث العربى (بدون .
- التحريروالتنويرللطاهربن عاشور الدار التونسية للنشر ١٩٨٤ .
- التعبيرالقرآن للدكتورفاضل السامرائ دارعمارط ٤ سنة ٢٠٠٦م
- التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن للدكتور عبد العظيم إبراهيم المطعني مكتبة وهبة ط ٣ ٢٠١١م.
- تفسير القرآن الحكيم الشتهر باسم تفسير المنار للإمام الشيخ محمدعبده تحقيق السيد محمد رشيد رضا طبعةدارالمنارباالقاهرة ط ٢ ١٩٤٧م.
- تفسيرالطبري جامع البيان عن تأويل آى القرآن لابن جريرالطبرى تحقيق دعبدالله عبدالمحسن التركى ط ١ سنة ٢٠٠٣م.
- تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان للعلامة النيسابورى تحقيق الشيخ زكريا عميرات ٨ دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط ١ سنة ١٩٩٦م .
- تفسير القرآن العظيم لابن كثير – دار المعرفة – بيروت ١٩٨٣م .
- التفسير اكبير أو مفاتح الغيب للرازى – دار إحياء التراث العربى – بيروت – لبنان ط ٢ ١٩٩٧م .
- جامع البيان عن تأويل آى القرآن الطبرى تحقيق د / عبد الله عبد المحسن التركى مطبعة مصطفى الحلبى بمصر ط١ ٢٠٠م .
- الجامع الكبير للإمام الترمذى تحقيق بشار عواد معروف دار العرب الإسلامى ط١ ١٩٩٦م.
- دلائل الإعجاز –عبد القاهر الجرجانى – علق عليه محمود شاكر مطبعة المدنى القاهرة ط٣ ١٩٩٢ .

• دلالات التراكيب د محمد أبو موسى – مكتبة وهبة – القاهرة – ط٢ ١٩٨٧م .

• روح المعانى فى تفسير القرآن والسبع المثانى – للألوسى البغدادى – طبعه وصححه على عبد البارى عطية – دار الكتب العلمية بيروت لبنان – ١٩٩٤م .

• صحيح البخارى –لابن إسماعيل البخارى – تحقيق محمد عبد القادر عطا دار التقوى ط١ ٢٠٠١م .

• صفوة التفاسير – محمد على الصابونى – دار الرشيد – سوريا حلب ط ٢ .

• الصناعتين الكتابة والشعر لأبى هلال العسكرى – تحقيق على محمد البيجاوى – محمد أبو الفضل إبراهيم –عيسى الحلبى –ط ١– ١٩٥٢م .

• عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص –بهاء الدين السبكى – دار السرور بيروت لبنان .

• العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده لابن رشيق القيروانى تحقيق د انبوى شعلان مطبعة الخانجى بمصر ط١ ٢٠٠م .

• فتح البارى فى شرح صحيح البخارى لابن حجر العسقلانى تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى – مكتبة الرياض الحديثة.

• الفروق اللغوية لأبى هلال العسكرى تحقيق محمد إبراهيم سليم دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع (بدون)

• الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل للزمخشرى – مكتبة الحلبى – القاهرة .

• لسان العرب لأبى الفضل جمال الدين ابن منظور – دار المعارف .

• المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير – تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد المكتبة العصرية ١٩٩٥م .

• المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز لابن عطية الأندلسى تحقيق عبد السلام عبد الشافى محمد دار الكتب العلمية بيروت ط١سنة ٢٠٠١م.

• معترك الأقران فى إعجاز القرآن للإمام جلال الدين السيوطى تحقيق محمد على البجاوى دار الفكر العربى .

• المعجم الوسيط أخرجه : إبراهيم مصطفى ،وأحمد حسن الزيات ، حامد عبد القادر ، محمد على النجار أشرف على طبعه عبد السلام هارون .

• مفرات ألفاظ القرآن الكريم للراغب الأصفهانى.

• المنزع البديع فى تجنيس أساليب البديع للسلجماسى تحقيق الغازى مكتبة دار المعارف الرباط ط١ سنة ١٩٨٠م.

• النبأ العظيم – عبد الله دراز – دار القلم للنشر والتوزيع – ط٧ ١٩٧٣ م

• النكت فى إعجاز القرآن للرمانى ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القران الكريم تحقيق د محمد زغلول سلام ،و الاستاذ محمد خلف الله دار المعارف بالقاهرة ط٢.

• الوجوه والنظائر فى القران الكريم للدماغانى تحقيق عبد العزيز سيد الأهل دار العلم للملايين ط٤ ١٩٨٣.

• الإيضاح للقزوينى تحقيق محمد عبد المنعم خفاجى ج ١ص ٥٢ار الجيل بيروت ط ٣د ت).